شعر المنفى في
ديوان البارودي
دراسة موضوعية فنية

د٠ فاطمة البيومي محمود سلامة

مدرس الأدب والنقد
في كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالمنصورة

١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾

(سورة طه : آية ١١٤)

المقدمة

بسم الله الذي قال في كتابه العزيز " ونبلوكم بالشر والخير فتنة " وكانت محنة المنفى على رأس ابتلاءات البارودي وأشدها مضاضة ، أدت به إلى نوع من الاغتراب [١] وعدم التكيف والتأقلم مع الواقع المرير الذي فرضه عليه الواقع السياسي الجائر، والذي حار خلاله الشاعر وعبر عن حيرته بكثير من الشعر، اسمعه يقول:[٢]

غريب تخطاه الأساة فما له ... سوى عبرات المقلتين طبيب

وما أسفي أني غريب عن الحمى ... ولكنني بين الأنام غريب

فالشاعر أصيب بخيبة أمل إذ أن ما قدمه لوطنه لا يستحق هذا المقت والإبعاد والنفي فيقول:[٣]

فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ... ذنب أدان به ظلما وأغترب ؟

ويقول أيضا :[٤]

لا عيب في سوى حرية ملكت ... أعنتي عن قبول الذل بالمال

تبعت خطة آبائي فسرت بها ... على وتيرة آداب وآسال

---

١ - الاغتراب : هو الشعور الغامر بالغربة والذي يفرض نفسه على عقل ووجدان الإنسان وعلى علاقاته . وقد عرفه البعض بأنه مفهوم يحوي عناصر معينة مثل الانسلاخ عن المجتمع والعزلة والانعزال والعجز عن التلاؤم . الاغتراب في الأدب العبري الحديث د. محمد محمود أبو غدير . مجلة الزهراء كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالقاهرة العدد الخامس ١٩٨٧م . ص ١٦٦ ، ١٦٧ نقلا عن د. محمد خليفة حسن . دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمة . القاهرة ١٩٨٥م ص١٩٧

٢ - ديوان البارودي ج١ المقدمة ص٤٠ بخط المؤلف

٣ - الديوان ج١ ص٧٣، ٧٤ ط دار العودة بيروت

٤ - السابق ص٩٨، ٩٩

فما يمر خيـــال الغدر في خلدي ولا تلوح سمات الشر في خالي

وما دام النفي أصبح واقعا حقيقيا فلتسعفه ربة الشعر وليصور القائـــد والفارس الأديب ما يعانيه في منفاه من هموم وآلام وأشجان ووجد وشـــوق برَح به وشكوى وفخر ووصف ٠٠٠الخ

وشعر المنفى يمثل جزءا كبيرا من ديوان البارودي ، ولا غرو فسبعة عشـــــــر عاما في " محنة واغتراب " جديرة بأن يبـــدأ الشـــاعر ويعيـــد مصورا وواصفا ٠ خاصة وقد تعاورته في منفاه العديـــد مـــن الحـــوادث الجسام فكانت فجيعته الكبرى في موت زوجته ورفيقة دربـــه وأم أبنائـــه " عديلة يكن " ماتت وتركت أبناءه وبناته صغارا بلا أب ولا أم ، ثم ماتـــت ابنته أيضا ، ثم أخذ الموت يكر في أترابه، وكذا زملاؤه في المنفى دبـــت بينهم الشحناء والبغضاء وأخذ كل منهم يلقي على الآخر تبعة ما حلَ بـــه ، فعافهم البارودي وتركهم إلى " كندي " ليقضي بها عشرة أعوام أخرى ٠

وكان العزاء الوحيد للبارودي في هذه المحنة – كما سبق القول – هو قيثارته التي أسعفته بالتعبير عن مكامن النفس ومشاعر الذات ٠

وشعر المنفى بعامة جدير بالدراسة والبحث ، فمن خلاله يقف الأديـــب على مدى التباين والاختلاف في عملية الخلق الشعري ، فقد تولد موضوعات لدى الشاعر لم تكن في ديوانه قبل المنفى كالتفجع والتحسر والشكوى والزهـــد والاستعطاف ، وقد تختلف المعاني التي يضمها الغرض الواحد عمـــا كانـــت عليه قبل ، كالوصف – فقد كان وصفه قبل المنفى ينصـــب علـــى وصـــف الحسان والخمر ووصف المعارك الحربية ، وشجاعة الجنـــد وقـــوة اســـتعداد الخصم ٠٠الخ ، أما في المنفى فتراه ينصب على وصف منفاه ووصف حاله وأسقامه وأوجاعه وأنَات قلبه المتوجع ، وشوقه وشدة وجده٠

والبحث يحتوي على مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة.

في التمهيد ألقيت الضوء على نشأة البارودي وتقلبه في المناصب الحربية والسياسية في الدولة ، ومكانته السياسية واتجاهه الوطني وظروف منفاه ، والإشارة إلى أخلاقه وشعره .

والفصل الأول : يحتوى على الدراسة الموضوعية لشعر البارودي ، وقد رتبته حسب الأغراض التي أفاض فيها ، فبدأت بالأكثر فالأقل .

وأغفلت الحديث عن بعض الموضوعات لقلة الوارد عنه فيها كشعر الهجاء.

وكان الشوق والحنين، والوصف، على رأس موضوعات شعر المنفى لدى الشاعر.

وفي الفصل الثاني كانت الدراسة الفنية لشعر المنفى ، فدرست الصياغة والتراكيب، والموسيقى ودورها في إبراز المعنى ، والصورة ، والوحدة الفنية لدى الشاعر.

ثم الخاتمة ثم عمل فهرس لمصادر ومراجع البحث.

تمهيد

محمود سامي حسن حسني بك البارودي:

جركسي الأب والأم ولد سنة ١٨٣٨م ، كان أجداده يرقون بنسبهم إلى حكام مصر المماليك ، وكان البارودي شديد الاعتداد بنسبه هذا كثير الفخر به.

كان أبوه حسن حسني من أمراء المدفعية ، وتوفي ولم يتجاوز البارودي السابعة من عمره فكفله بعض أهله ، التحق بالمدرسة الحربية في الثانية عشرة من عمره وتخرج منها وهو في السادسة عشرة في عام ١٨٥٤م وكان ذلك في عهد عباس الأول الذي كان من المعوقين للنهضة. وقد خمدت في عهده روح الحماسة الوطنية التي أشبها محمد علي في الجيش المصري وسرح معظمه وافتقرت ميادين القتال من ألوية مصر .

ولم يكن عهد سعيد أحسن حالا من عهد عباس ، فلم يجد البارودي – وكذا زملاؤه – عملا يعمله فعكف على دواوين الشعر وخاصة القديم منها ، وقد كان صاحب موهبة شعرية وملكة فطرية ، وراقه من الشعر: شعر الحماسة والفخر ووصف الميادين الحربية والغارات ، وراقه أيضا ما وجده في الأدب من تصوير للحياة في كافة جوانبها فازداد شغفه به ، وحرصه على تدوينه وتمثيله ومحاكاته، وتقليد فحول الشعراء في أروع وأجود ما قالوه.

وبعد أن تولى إسماعيل أريكة مصر ذهب إلى الأستانة ليقدم واجب الولاء والشكر على توليه حكم مصر، عاد بالبارودي وألحقه بحاشيته ورأى فيه ما لم يره في غيره. وقد تحقق للبارودي في فترة حكم إسماعيل كل ما تصبوا إليه نفسه من عز وجاه ومنصب،فقد حاز أوسمة عدة، ولأنه صاحب حظوة عنده اتخذه كاتما لسره .

اشترك البارودي في الثورة في جزيرة أقريطش (كريت) على الدولة العثمانية فأبلى فيها بلاء حسنا فأنعم عليه السلطان بالوسام العثماني من الدرجة الرابعة ، ثم اشترك في الحرب على روسيا عام ١٨٧٨م - حين أعلنت الحرب على تركيا - وأرسل اسماعيل جيشا يعاون متبوعه الأعظم " تركيا " وكوفئ عن مواقفه فيها بإنعام الخليفة عليه برتبة " أمير اللواء " وبنيشان الشرف (الميداليا) وبوسام المجيدين من الدرجة الثالثة ، وبعد عودته من حرب البلقان عين مديرا للشرقية فمحافظا للعاصمة.

وساءت الأحوال في أخريات عصر إسماعيل وفرضت الضرائب الباهظة والمتنوعة على الفلاحين ، والتي أضرت بهم كما أضرت بالعديد من الصناعات والأعمال التجارية والزراعية ، وازدادت الأمور سوءا بعد تولي توفيق ولي العهد الوزارة فأبى تخفيض الضرائب، وخاب أمل المصريين فيه إذ كانوا يعلقون عليه آمالا كبيرة فقد أرجع المراقبة الثنائية وخاصة الحكم النيابي وحكم البلاد مطلقا.

وكان البارودي من المقربين لتوفيق فولاه وزارة الأوقاف ، وكان فيه ميل إلى الإصلاح وتشبعت نفسه بروحه الوطنية،ولما ثار الجيش ثورته وقامت حركته مطالبة بتولية المصريين المناصب العليا - وكانت هذه المناصب قاصرة على الجراكسة والأتراك- عزل عثمان رفقي إثر هذه الحركة الإصلاحية،وتولى البارودي وزارة الحربية مع الأوقاف.

وقامت مظاهرة عابدين ١٨٨١م يتقدمها عرابي مطالبا إسقاط وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس نواب وزيادة عدد الجيش.

ولما كان البارودي وزيرا للحربية في وزارة رياض باشا ورأى الأخير ميل البارودي الوطني ونزعاته الشعبية، دس عليه لدى توفيق

فاضطره إلى الاستقالة من الأوقاف والحربية، واعتزل البارودي على أثرها الحياة السياسية بعامة وترك القاهرة وجوها القلق ، وآثر العزلة في الريف.

وعاد البارودي بعد سقوط وزارة رياض إلى وزارة الحربية بعد إلحاح شديد من توفيق باشا ،وانتخب مجلس النواب وافتتح في ديسمبر ١٨٨١م وهدأت الأمور وسارت وزارة شريف في طريق الإصلاح ،ولكن إنجلترا وفرنسا كانتا كارهتين للهدوء والاستقرار ،فما إن أخذ مجلس النواب يناقش المادة التي تخول له الحق في تقرير الميزانية ، حتى قدمتا مذكرة تحتجان فيها على ذلك ، وقبل شريف هذا الاحتجاج ورفضه مجلس النواب ، فاستقالت ، وتولى البارودي رئاسة الوزارة في فبراير ١٨٨٢م وكان عرابي وزيرا للحربية في وزارة البارودي.

وكان البارودي محبوبا من الشعب ومن الجيش على السواء ، وفرح المصريون بوزارته فرحا عظيما ، وأخذ مجلس النواب فوق إصداره الدستور يبحث في عدة مشروعات لمعالجة العديد من القضايا ، مثل غلاء الأسعار وتعميم التعليم الابتدائي وإصلاح القضاء ، ثم انتهت دورته فتابعت الوزارة حركة الإصلاح في خطا واسعة، ولكن أنَى لها الجو الهادئ وتوفيق وقع تحت فرنسا وإنجلترا ، وهما يتربصان بمصر والمصريين الشر، فانتهزتا فرصة الخلاف بينه وبين الوزارة بسبب مؤامرة الضباط الجراكسة على قتل عرابي وأصحابه ، فتقدمت الدولتان بمذكرة جديدة بضرورة استقالة الوزارة ونفي عرابي وتحديد إقامة بعض أصحابه.

واجتمع الوزراء وقرروا رفض المذكرة ، ولما قبلها توفيق اضطروا إلى الاستقالة.

وهاج الشعب على أثر ذلك وقدموا احتجاجات قوية لتوفيق يطلبون

فيها رفض طلبات انجلترا وفرنسا والإبقاء على عرابي في الوزارة ، وإذا أبى توفيق عزل عزلا. واضطر توفيق إلى الإبقاء على عرابي وزيرا للحربية ، وبقيت الوزارات الأخرى شاغرة إلى حين .

ولما طالب الجيش بعزل توفيق راودت البارودي نفسه ونازعته يومئذ إلى المجد المؤمل وإلى مكان أجداده المماليك الذين حكموا مصر ، فخاض الثورة مع الخائضين ولكنه رأى بعين فراسته أن التيار شديد ،وأن انجلترا وفرنسا تتربصان بمصر الدوائر ،وأحس بالخطر وعلم أن لا قبل له بمواجهته ، فنصح لعرابي وإخوانه وصارحهم برأيه ، وحاول الاعتزال في مزارعه ولكن هيهات ، وقد جرى مع الضباط شوطا بعيدا وربط حظه بحظهم وإن لم تعد له الصدارة كما كان.

وأخفقت الثورة العرابية ونفي البارودي مع زملائه إلى سرنديب فأقام بها سبعة عشر عاما وبعض عام.[١]

وظل وزملاؤه سبعة أعوام في" كولمبوا " ولما دبت بينهم الشحناء وألقى كل واحد منهم اللائمة على زميله فارقهم إلى كندي وأمضى بها عشرة أعوام أخرى وفيها تعلم الإنجليزية.

وفي المنفى قال أروع قصائده، فشكى وتوجع وأنَ وحنَ، وتذكر أيام لهوه وملاعب صباه وأسعفته ربة الشعر للتعبير عن هواجس نفسه، وما عاناه في محنته واغترابه.

ولقى في المنفى فواجع عدة – كما سبقت الإشارة إليه – أضف إلى ذلك أن تقدم العمر به وهو في منفاه أورثه الأسقام والعلل والأوجاع ،

---

١ – مقدمة ديوان البارودي د. محمد حسين هيكل بتصرف

فضعف بصره ووهنت قواه وعبّر عن كل ذلك بشعر رائق مؤثر.

أما عن أخلاق البارودي فلعل أهم صفة عرف بها هي شدة اعتداده بنفسه وبحسبه الجركسي وزاد من اعتداده هذا تبوؤه من فنون الحرب والجندية مكانة سامية ، كما كان طموحا عريق الآمال. اسمعه يقول:

وبي ظمأ لم يبلغ الماء ريّه ... وفي النفس أمر ليس يدركه الجهد
أود وما ود امرئ نافعا له ... وإن كان ذا عقل إذا لم يكن جد
وما بي من فقر لدينا وإنما ... طلاب العلا مجد وإن كان لي مجد

ولما ابتلى بمحنة المنفى وحدث ما لم يكن يتوقع تراه وقد تطامن في مطلبه دعا إلى عدم المغامرة في الأحلام والآمال. يقول[١]:

وكن وسطا لا مشرئبا إلى السها ... ولا قانعا يبغي التزلق بالصغر

وكان في صباه يجري وراء اللهو ويغشى مجالس الطرب والخمر، فارسا يحمل نفسا مرحة محببة لدى أنداده وزملائه، فإذا ما قضى واجب الدين فليس عليه في الخلاعة من وزر يقول[٢]:

إذا ما قضينا واجب الدين حقه ... فليس علينا في الخلاعة من وزر

ويقول[٣]:

فطورا لفرسان الصباح مطاردا ... وطورا لإخوان الصفاء سمير
ويا رب حي قد صبحت بغارة ... تكاد لها شم الجبال تمور
وليل جمعت اللهو فيه بغادة ... لها نظرة تسدى الهوى وتنير

تغنى كثيرا بأخلاقه النبيلة وافتخر بصفاته الكريمة، من وفاء وصدق

---

١ - ديوان البارودي ج٢ ص١٥
٢ - ديوان البارودي ج٢ ص٧
٣ - ديوان البارودي ج٢ ص٢١

إخاء وكرم أصل وعلو همة، يقول[١] في الافتخار بأخلاقه في صداقته:

اختبرني تجد صديقا حميما ... لم تغيـر وداده الأهـــــواء

صادقا في الذي يقول وإن ضا ... قت عليـــه برحبها الدهنـــاء

ويقول[٢] مفتخرا بعلو همته:

إذا لم يكن إلا المعيشة مطلب ... فكل زهيد يمسك النفس جابـر

ويقول[٣] متغنيا بجوده ،وحاثا على البذل والعطاء:

فلا تحسبن المـــــــال ينفع ربه ... إذا هو لم تحمد قـراه العشائـــر

فقد يستجم المال والمجد غائب ... وقد لا يكون المال والمجد حاضـر

أما عن ثقافته فقد جبل البارودي على الطموح والتطلع للمعالي ، فمـا إن تخرج من المدرسة الحربية ولم يجد لنفسه – في ذلك الوقت – عمـلا طالمـا تطلع إليه ، أبى حياة الخمول والدعة فعكف على دواوين الشعر القديمة يستلهمها ويستوعبها ، يقرأها قراءة متأنية فاحصة ، فتشبعت روحه بها ، واستهواه شعر الحرب والحماسة ، فأخذ في استيعابه والنسج على منواله،وكانت فيـه موهبـة قوية لقول الشعر ، والتي صقلها ونماها بالدراسة الأدبية والاطلاع على دواوين الشعر جاهليها وعباسيها وحفظه للشعر الجيد منها.

تلك هي كانت عدة البارودي، أضف إلى ذلك اطلاعه علـى بعـض الآداب الفارسية والتركية والانجليزية ، فقد أتاحت له حروبه في (كريـت) وروسيا فرصة للاطلاع على لغة القوم ،كما كانت محنة المنفـى فرصـة عظيمة لتعلم اللغة الانجليزية ،فيقال إنه تعلمها ونظم بها بعض الأشعار.

---

١ – ديوان البارودي ج١ ص٢٨

٢ – ديوان البارودي ج٢ ص٨٣

٣ – ديوان البارودي ج٢ ص٨٥

ولعل عصر البارودي وما حواه من أحداث وفتن وقلاقل كان له دوره في تفجير العديد من المشاعر وتصوير العديد من المشاهد .

وشعر البارودي شعر الطبع بالدرجة الأولى فهو لم يتكلفه ولم يتعسف نظمه، بل تراه مواتيا سهلا لينا غير قلق أو مضطرب ، وعلى الرغم من موهبته الفطرية وشاعريته المواتية نجد البارودي - وهو الذي ينشد الكمال ويسعى وراء الحسن - يعاود النظر في شعره ويأخذه بشيء من الصقل والتنقيح والتهذيب ، فبعد عودته من المنفى أخذ ينظر في شعره المرة تلو الأخرى ، ودليل معاودته شعره اختلاف القصائد في الديوان عن نصها المنشور أولا في الوسيلة الأدبية للمرصفي .

خذ مثلا قوله في الوسيلة الأدبية[1] :

أقاموا زمانا ثم بدد شملهم أخو فتكات بالكرام اسمه الدهر

فقد جاء في الديوان:

أقاموا زمانا ثم بدد شملهم ملوك من الأيام شيمته الغدر

---

١ - اعتمد في هذا التمهيد على:

- مقدمة ديوان البارودي د. محمد حسين هيكل

- في الأدب الحديث د. عمر الدسوقي دار الفكر العربي ج١

الفصل الأول

الدراسة الموضوعية

الوصف :

الوصف أحد الموضوعات التي طرقها البارودي في منفاه ، والوصف في المنفى عنده يختلف عنه قبل المنفى موضوعيا وفنيا، فلم يكن له قبل المنفى وصف لهذه البيئة الجديدة التي نفي إليها ، ولا تصوير لأناسها البائسين ، ولم يكن يخطر بباله يوما أن تصير قواه إلى هذا الحد من الوهن والضعف الذي صارت إليه وهو بمعزل ومنأى عن أهله ووطنه وذويه، فلم نجد له قبل منفاه تصويرا من هذا النوع ، ولم نجد له قبل منفاه تصويرا لهذا الشوق المضني وهذا الحنين الجارف ، وجدناه في منفاه يتناول جل هذه المعاني وغيرها، بأسلوب يختلف حرارة وأداء.

والوصف مبني علي التصوير بالدرجة الأولي، فهو ينقل المشاهد الحسية المادية بصورة تشخيصية ملموسة كما ينقل المشاعر والأحاسيس والانفعالات التي تعتور الشاعر في حالاته المتباينة .

ولا نبالغ إذا قلنا إن غرض الوصف يندرج تحته جل موضوعات الشعر.، فالرثاء وصف، وصف لمشاعر الفرد والجماعة تجاه الميت وتصوير ألم الخطب ورزء المصيبة، والفخر وصف ،ووصف لشمائل الشاعر وقيمه الخلقية أو قيم قبيلته وقومه والتي يرى الشاعر أنها جديرة بالوصف والتخليد والتغني بها، والمديح وصف ، ووصف لشمائل الممدوح وقيمه الخلقية، والشكوى وصف، ووصف لنفسية الشاعر وتصوير بواعث الألم في نفسه ، ومصدر أنينه وما يقض مضجعه. " إذن فالشعر إلا أقله راجع إلي باب الوصف:ولا سبيل إلي حصره أو استقصائه "[١]

---

١ - العمدة جـــــ٢ صـــ٢٩٤.

وللبارودي قدرة بارعة على الوصف والتصوير . يقول د. شوقي ضيف عن روعته

التصويرية " ولا يروعنا البارودي بصدقه في وصف أحاسيسه وما مر به من أحداث الحياة وأحاط به من واقعها في بيئته وغير بيئته فحسب ، بل يروعنا أيضا بملكته الخيالية التي أتاحت له تصوير المشاهد الكبيرة تصويرا ينبض بالحركة والحيوية الدافقة ولا نقصد المشاهد الحسية وحدها ، بل نقصد أيضا المشاهد النفسية ، إذ استطاع دائما أن يرسم ما يجري من حوله وفي نفسه رسما تخطيطيا دقيقا ". [١]

وقد عدّ أ.عمر الدسوقي الوصف من الجديد في شعر البارودي فقال:[٢] " ولا تعجب إذا عددنا الوصف جديدا عند البارودي ، وإن كان قديما منذ أن كان الشعر العربي وما من شاعر إلا له في الوصف أبيات وقصائد ، ولكن الجديد في وصف البارودي أنه أفرد له قصائد بعينها ،ولم يأت به عرضا في ثنايا القصائد . كان يصف لمجرد الوصف ،ولأن شاعريته وحواسه المرهفة ، وتذوقه الحاد للجمال كانت تدفعه إلى قول الشعر وإلى وصف مشاهداته لا كما هي في الطبيعة ، ولكن يخرجها بشخصيته وشعوره وأفكاره " .

وقد كثر شعر الوصف في منفى البارودي ، فكثيرا ما صور وجده ومعاناته ، وصور شوقه وحنينه إلى أهله وأيام صباه ، وصور بيئة المنفى ووصف أهلها البائسين .

ولعل أكبر مشهد نفسي كما يقول د. شوقي ضيف وقف أمامه البارودي

---

١ – البارودي رائد الشعر الحديث – دار المعارف ط الخامسة ص١٨٨

٢ – في الأدب الحديث – دار الفكر العربي – القاهرة ج١ ص١٩٨

كثيرا هو مشهد الغربة في سرنديب وحنينه إلى وطنه وصحبه وأهله [١]

وما من شك في أن عامل الاغتراب والنفي من أقوى الدوافع للوصف والتصوير، فهو يحرك المشاعر الإنسانية عموما ، فضلا عن مشاعر الشعراء الذين هم أرهف الناس حسا ، وأقدرهم ملكة وموهبة على تصوير تلك المشاعر ، فإذا توافر الداعي وتوفرت له سبل الخصب والإجادة أنتج لنا هؤلاء الشعراء شعرا يمتلك على النفس أقطابها ويحملها على التعايش والتجاوب مع الشاعر والتأثر بما تأثر به وأثر فيه .

فمن وصفه الرائع الأخاذ وتصويره النفسي الذي يحمل على الشفقة والحدب ، وصفه لحاله بالمنفى قائلا:[٢]

ترحل من وادي الأراكة بالوجد ... فبات سقيما لا يعيد ولا يبدي
سقيما تظل العائدات حوانيا ... عليه بإشفاق وإن كان لا يجدي
يخلن به مسا أصاب فؤاده ... وليس به مس سوى حرق الوجد
به علة إن لم يصبها سلامة ... من الله كادت نفس حاملها تردي
ومن عجب الأيام أني مولع ... بمن ليس يعنيه بكائي ولا سهدي
أبيت عليلا في سرنديب ساهرا ... أعالج ما ألقاه من لوعتي وحدي
أدور بعيني لا أرى وجه صاحب ... يريع لصوتي أو يروق لما أبدي

وهذه الأبيات تنقل شعوره النفسي الأليم وإحساسه بالوحشة والاغتراب ، فقد صار في منفاه سقيما عليلا لا يستجيب داؤه لدواء، حتى ظن أن به مسا. ويؤكد البارودي أن ما به ليس سوى وجد محرق وشوق ممض ، ولا سبيل إلى الخروج من هذه المحنة غير فرج من الله تعالى ،

---

١ - البارودي رائد الشعر الحديث ص١٩٠

٢ - السابق ج١ ص٢٠٧

ومما زاد في وجده وتمكن علته منه أنه يعيش غربة نفسيه بين أناس لا يألمون لألمه ولا يهتمون بشأنه. ويمثل بيته :

أدور بعيني لا أرى وجه صاحب يريع لصوتي أو يروق لما أبدي

هذا الواقع النفسي الأليم الذي يعيشه ، فحاله في منفاه بين السقم والشوق.

ويصف في موضع آخر حاله في منفاه وصفا ينم عن موجدة حقيقية وحزن دفين فهو يحمل بين أضلاعه حرق الوجد وألم الفراق وإن أبدى سرورا ، وتراه يكفكف دمعه ويتجلد أمام الغير منتظرا أمرا يسر به من الله تعالى، ومما يخفف من غلواء الفراق وألم الغربة ما يوجد بوطنه من إخوان يحبونه ويقدرون علو كعبه في مجال الشعر . يقول:[1]

لا في سرنديب خل أستعين به على الهموم إذا هاجت ولا راعي
يظنني من يراني ضاحكا جزلا أني خلي وهمي بين أضلاعي
ولا،وربك ما وجدي بمندرس على البعاد ولا صبري بمطواع
لكنني مالك حزمي ومنتظر أمرا من الله يشفي برح أوجاعي
أكف غرب دموعي وهي جارية خوف الرقيب وقلبي جد ملتاع
فإن يكن ساءني دهري وغادرني رهن الأسى بين جدب بعد إمراع
فإن في مصر إخوانا يسرهم قربي ويعجبهم نظمي وإبداعي

وقد أكثر البارودي من تصوير شوقه وحاله في منفاه انظر إن شئت في ديوانه ج٢ ص ٢٣٩ وما بعدها.

ويصف منفاه مبينا أنه يقع في قمة جبل منفرد مستطيل في السماء لدرجة أن الشهب والنجوم تكتنف هذه القمة وتحيطها إحاطة المنطقة

---

١ - ديوان البارودي ج٢ ص٢٦٢ ،٢٦٣

بالخصر وتعترضها اعتراض الوشاح. يقول: [١]

أبيت أرعى نجـوم الليـل مرتقبا ... في قنـة عز مرقاها على الراقي
تقلدت من جمان الشهب منطقـة ... معقـودة بوشـاح غير مقلاق
كأن نجـم الثريا وهو مضطرب ... دون الهلال سراج لاح في طاق

ويصور في موضع آخر طبيعة منفاه فيقول[٢]:

أبيت في قنة قنـواء قد بلغت ... هام السـماك ، وفاتته بأبواع [٣]
يسـتقبل المزن ليتيهـا بوابله ... وتصدم الريح جنبيـها بزعزاع[٤]
يظل شمراخها يبسا وأسـفلها ... مكللا بالندى يرعى به الراعي [٥]
إذا البروق ازمهرت خلت ذروتها ... شـهما تدرع من تبر بأدراع[٦]
تكاد تلمس منها الشمس دانـية ... وتحبس البـدر عن سـير وإقلاع
أظل فيها غريب الدار مبتئسـا ... نابي المضاجع من هم وأوجـاع

فمنزله بالمنفى كائن على قمة جبل بسرنديب ذاهب في الفضاء قد بلغ في ارتفاعه السماك . وهذه القنة التي بها منزله تصدمها الريح صباح مساء ، وتنزلق الأمطار الغزيرة على صفحتيها فترى أسافلها مندي خصب ينبت العشب والكلأ. وترى أعاليها صلبة شديدة الصلابة لا تمسك ماء ولا تنبت

---

١ - السابق ج٢ ص٣٢٣

٢ - الديوان ج٢ ص٢٦١

٣ - القنة : أعلى الجبل . قنواء : عالية مرتفعة ، السماك : نجم نير يضرب به المثل في الارتفاع الأبواع : جمع البوع وهي مسافة مابين الكفين إذا بسطتهما .

٤ - الليتان : صفحتا العنق عليهما ينحدر القرطان والمراد بالليتان هنـا جـانبي القنـة . زعزاع : ريح شديدة تحرك الأشياء

٥ - شمراخها : أي رأس القنة وأعلاها . مكللا اسم مفعول من الإكليل : وهو شبه عصابة تزين بالجواهر والمراد أن أسافل القنة مزين بالعشب والكلأ والنبات فهو مندي خصيب

٦ - ازمهر البرق إذا لمع . الشهم : الشجاع . تدرع : لبس الدرع

كلأ، وإذا لمع برق بهذه القنة تراها كأنها فارس تدرع بدروع ذهبية، وهي لكونها ذاهبة في السماء يكاد من يقطنها أن يلمس الشمس ويحبس القمر عن السير ويتحكم في حركته. وحاله في هذه القنة بين اليأس والسهد والهم.

ويقول في وصف سرنديب [١] وأنها جنة من جنان الأرض فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، ورغم ذلك فالنفس لم تألفها ، ولم لا وليس له بها خل ولا صديق يخفف عنه حرق الوجد وألم الغربة.

منازل لم تألف بها النفس مألفا ... على أن فيها كل ما تشتهي النفس
ولا عيب فيها غير أن ليس لي بها ... أنيس وفقد الخل في غربة حبس
وكيف يطيب العيش في ظل بلدة ... خلاء من الآلاف ليس بها أنس

وصور لنا البارودي بيئة منفاه تصويرا دقيقا ينم عن شاعرية فذة وعين لاقطة ونفس صادقة .صورها من حيث طبيعتها الساحرة فهي تزدان بالمناظر الطبيعية الخلابة والرياض الساحرة التي تأخذ اللب. كما صورها من حيث القاطنين بها ووصفهم وصفا حسيا حيا ، غرضه منه الهجاء وبيان كيف أن هذه البيئة بما تحويه من أناس يحملون هذه الصفات كانت من أهم العوامل التي أدت إلى دخوله في مرحلة اغتراب شديد لم يفق منها. اسمعه يقول:[٢]

إن سرنديب على حسنها ... يسكنها قوم قباح الوجوه
من كل فدم لائك مضغة ... يمجها كالدم في الأرض فوه
تحسبه من نضح أشداقه ... ركية تجري دما ، أو تموه
لا يشبه الوالد مولوده ... منهم ولا المولود منهم أبوه
يغلط طبع منهم فاقد ... مزية العلم ، ووجه يشوه
من أين يدري الفضل معدومه ... لا يعرف المعروف إلا ذووه

---

١ - ديوان البارودي تحقيق علي الجارم ومحمد شفيق معروف ج١ المقدمة ص٤٠ بخط المؤلف

٢ - ديوان البارودي ج٤ ص١٨٥

لا تلبث الحكمة ما بينـــــهم ولا يريث الفضـــل حتى يتـــوه
تظن بعض القـــــوم علامـــة وهو إذا ينطـــق هام ينـــــــوه
لا تعرف المرء بأخـــــــلاقه في غمرة العالم حتى يفـــــــوه

وهذا الوصف كما بينا يحمل هجاء لاذعا لأهل سرنديب ، فهم قوم قبيحي الهيئة يلوكون في أفواههم ورق التبغ وعندما يختلط بلعابهم يصير اللعاب أحمرا فيمجوه من فمهم على هذا الشكل المستقذر. وتراهم أخلاطا لا تعرف لهم أصول نسب، وهم مع ذلك جهلاء لا حضارة لهم ولا علم يرفعهم. ويبـــدو أن الحاســـة النقدية التي تحملها نفس البارودي أبت إلا أن تتناول كل ما لا يروقها ، ولـــم لا وهو الفارس الشركسي حاد الطبع جميل الطلعة لطيف المحيا .

ونراه في موضع آخر يصف شعوره بالاغتراب والوحشة بين أناس ليس له بينهم صديق ولا خليل يسره وينفس عنه لأواء الغربة .فهو يعيش بين عبـــدة أصنام أراذل، قصيري القامة تراهم يمشون في اضطراب وارتعاش وقلة ثبات، حفاة عراة يلبسون أثوابا بالية خلقة تكشف أجسادهم. يقول:[١]

ولو أنني صادفت خلا يسرني على عدوات الدار لم أتلهـــف
ولكنني أصبحت في دار غربة مقيما لدى قوم على البد عكف[٢]
زعانف هداجون في دار غربة كخيط نعام بين جرداء صفصف [٣]
حفاة عراة غيـــر أخلاق صدرة تطير كنســـج العنكبوت المسدف[٤]

---

١ - ديوان البارودي ج٢ ص ٢٦٥

٢ - البد : الصنم وهي كلمة فارسية

٣ - زعانف : أراذل . هداجون : صفة للمشية التي بها ارتعاش واضطراب كمشية الشيخ الهرم. الخيط : الجماعة من النعام . الصفصف : الأرض الملساء المستوية التـــي لا نبات فيها

٤ - أخلاق صدرة : قميص صغير بالي . المسدف : الممزق

ويستمر البارودي في وصف أهل سرنديب ، فهم على ولعهم بمضغ ورق التبغ، قوم عجم، يرطنون بلسان غير عربي فلا يفهم كلامهم إن تكلموا. وإذا حادث بعضهم بعضا سمعت لصوتهم جرسا ودويا كأنه صوت جني ،لذا تراه بينهم يشعر بالبداد والشتات والحسرة والوحشة إذ لا يرى فيهم من يؤنس وحشته ويخفف عنه ألم الغربة ومرارة المنفى. يقول :[١]

يمجون من أفواههم رشح مضغة ... كنضح دم ينهل من أنف مرعف
إذا راطنوا بعضا سمعت لصوتهم ... عزيفا كجن في المفاوز هتف [٢]
فها أنا منهم بين شمل مبدد ... ومن حسراتي بين شمل مؤلف
أحن إلى أهلي وأذكر جيرتي ... وأشتاق خلاني وأصبوا لمألفي
فلا أنا أسلوا من هواي فأنتهي ... ولا أنا ألقى من أحب فأشتفي

فالبارودي كان صريحا مع نفسه ومع فنه في هذه المكاشفة والمصارحة ، وأن بيئة المنفى كانت عاملا مساعدا في زيادة حسراته وأناته ودخوله في مرحلة اغتراب مطبق تولد عنها ركون إلى العزلة وإيثار للوحدة فهو بين أناس يدينون بغير دينه ويتكلمون بغير لغته ومن وسط غير وسطه فحق لسليل الجراكسة ابن الحضر وفارس فرسان زمانه، ذو النفس الحساسة التي تأبى الضيم وترفض الهوان بكل صوره أن يصور هذه البيئة السيئة ويميل عنها ، ويترجح لدينا إدراج تصويره لأهل سرنديب في باب الوصف لعدم كونهم أهلا للعداوة والخصومة له.

وقد وصف البارودي طبيعة بيئة المنفى في أكثر من موضع

---

١ - ديوان البارودي ج٢ ص٢٦٥، ٢٦٦

٢ - راطن فلانا فلانا :إذا كلمه بلسان أعجمي لا تفهمه العرب . العزيف : جرس يسمع بالمفاوز في الليل . الهتاف : الصياح بصوت

في ديوانـــه، انظـــر ج٢ ص٣٢٨: ٣٣٣ ، ج ٤ ص ١٧٥ ، ج١ ص٤٣ المقدمة بخط المؤلف.

ومن وصفه الرائع الأخاذ لهذه البيئة وصف روضة " برديني " فـــي جزيرة سرنديب – وهي كما قال عنها أ. محمد شفيق معروف تعـــد تلـــك الحديقة من عجائب الدنيا ، وأعظم جنانها [١] – ويصـــور غشـــيانه تلـــك الروضة الغناء ، فيصف الزمان والجو والطير وصفاته ، ويصور أشجارها الكثيفة الملتفة ، ومن أبياته منها قوله:[٢]

والجـــو في حلة دكنـــاء مازجها ... خيط من الفجر يبدو ثم يشـــتبه
فالنور منقبض ، والظل منبسط ... والطير منشـــــرح والجو مدله
مناظر لو رأى "بهزاد" صورتها ... لاعتاده من تمادي الحيرة البله [٣]
كأنما الدوح قصر والحمام به ... سرب من الغيد بالألحـــان تبتده
طورا تغني وأحيـــانا تنوح فما ... ذاك الغناء وهذا النـــوح والوله
كأنما الأورق الغريد حين شدا ... في سربة الإنس منها– شارب فكه

ونراه في معرض تصوير ما يكابده في منفاه من الوحـــدة والوحشـــة والاغتراب يعقد لنا مشابهة بينه وبين فرخ طير كسير صغير يقطـــن بـــين

---

١ – ديوان البارودي ج٤ ص١٧١ وبردينيا هي كندي مدينة من أشهر مدن سرنديب علـــى بعد ثلاثة وسبعين ميلا من " كولمبو" وفي كندي حديقة النباتات الكبرى وتســـمى حديقـــة برديني ...على نهر سراديني الكبير وتعد تلك الحديقة من عجائب الدنيا أعظم جنانهـــا، كشعب بوان وصغد وسمرقند والأبلة بالبصرة

٢ – نفس المرجع ص١٧٣

٣ – بهزاد : هو كمال الدين استاذ بهزاد من أعلام التصوير الإسلامي ، وأشهر مصـــوري الفرس وفنانيهم وخطاطيهم . والمعنى أن المناظر الخلابة والمشاهد الغناءة تأخذ باللـــب وتبهر أشهر المصورين وتحيره

شجر كثير ملتف. فيقول:[١]

فلو تراني وبردي بالندى لثـــق ... خلتني فرخ طيـــر بين أدغال [٢]

غال الردى أبويـــه ، فهو منقطع ... في جوف غيناء لا راع ولا والي[٣]

أزيغب الرأس لم يبدو الشكير به ... ولم يصن نفسه من كيد مغتال [٤]

كأنه كرة ملســـــاء من أدم ... خفية الدرز قد علت بجريال [٥]

يظل في نصب حران مرتقبـــا ... نقع الصدى بين أسحار وآصال[٦]

يكاد صـــــوت البزاة القمر يقذفه ... من وكره بين هابي الترب جوال[٧]

لا يستطيع انطلاقا من غيابتـــه ... كأنما هو معقـــول بعقـــال[٨]

---

١ - الديوان ج٣ ص١٠٦ وما بعدها

٢ - لثق : ندي مبتل والواو واو الحال .خلتني : حسبتني. فرخ الطائر : ولده . الأدغال : جمع دغل وهو الشجر الكثير الملتف الكثيف

٣ - غاله : بمعنى اغتاله وأهلكه وأرداه . الغيناء : الأرض الخضراء وغيناء مؤنث الأغين : وهو الأخضر الطويل الناعم الكثير الورق

٤ - أزيغب : صفة فرخ طير في البيت الثلاثين . وهو تصغير الزغب : وهو ماله زغـب من الطير . والزغب : صغار الشعر والريش وأول ما يبدو منهما . الشكير : صـغار الريش النابتة بين كباره وكذلك صغار الشعر . كناية عن صغره وطفولته وضعفه . لـم يصن : لم يحفظ . الكيد : المكر السيئ

٥ - أدم : جمع الأديم وهو الجلد المدبوغ. الدرز : موضع الخياطة. علت : شربت مـرة بعد أخرى الجريال : صبغ أحمر أو خمري اللون أو سلافة العصفر

٦ - ظل يفعل كذا : فعله نهارا والمراد هنا أنه يبقى في نصبه ليلا ونهارا. الحران : شـديد العطش. النقع : مصدر نقع الماء العطش أي أذهبه وأطفأه وسكنه. الأسحار : آخر الليل

٧ - القمر : جمع الأقمر . صفة من القمرة وهي لون بين البياض والخضرة . يقذفه : يرميه بقوة

٨ - الغيابة : كل ما غيب شيئا وستره وأخفاه عن العيون والمراد هنا بغيابة الفرخ : وكـره وعشه الذي يستتر به ويلبث فيه. العقال : داء يأخذ الدواب في أرجلها ويراد به هنا ما يقيد هذا الفرخ ويمنعه المشي والحركة ويحبسه عن الانطلاق

فذاك مثـــــلي ولم أظلم وربتما فضلته بجـــوى حزن وإعوال[1]

ونلاحظ أن البارودي تتولد الصور لديه بل وتتوالى، لكثـــرة تفكيـــره وشدة عنائه بحاله ونفسه ، فالأبيات تصوير لما يعانيه في منفاه من ضعف وقلة حيلة، فهو يبيت في هذه القنة منفردا وحيدا كالصقر الذي يرقب صيدا ، وأماليه من الحرية والعودة إلى الوطن والصحب والأهـــل والأحبـــاب لا تبرحه وهو في هذه القنة تفعل به عوامل الطبيعة أفاعيلها من اشتداد الريح وبرودة الجو وهطل السماء والسحاب المسخر بين السماء والأرض والذي يغطيها كما تغطي الأروقة ما تحتها فقد مهَد بهذا التصوير لطبيعة ســيلان لتتوافق الصورة التشبيهية المبتغاة تشبيه حاله وهو في هذه القنة بحال هــذا الطائر الذي صفته كذا وكذا .وإن كنت آخذ عليه قوله :

يظل في نصب حران مرتقبا نقع الصدى بين أسحار وآصال

إذ أنه في هذه الصورة بيَن أنَ هذا الطائر يظل عطشانا منتظرا مـــا ينقع صداه ويطفئ ظمأه فهذه الصورة وإن كانت توضح أنَ خوفه وانقباضه وضعفه وانقطاعه أقعده عن السعي وراء المطعم والمشرب فهي لا تتفق مع ما صوره عن الطبيعة الباردة التي أحاطت بالطائر والتي مـــن شـــانها ألا تحدث ظمأ ولا تؤدي إلى صدى .

وفي قصيدته التي وصف بها روضة بكندي السابقة الـــذكر وصـــف لعالم الطير وهو يشدو ويغرد بتلك الروضة الغناء في نشوة وسرور حتـــى كأنه مخمور أو أخو صبوة، وترى طيور هذه الروضة تمر جماعات فـــي

---

١ – لم أظلم : لم أتزيد ولم أبالغ. ربتما : كلمة تقليل أو تكثير وهي هنا للتكثيـــر فالشـــاعر يفرق هذا الطائر ويزيد عليه في الكثير الغالب من الأحوال التي أشار إليها مـــن قبـــل. فضلته : فقته. جوى الحزن :حرقته وشدته. الإعوال : رفع الصوت بالبكاء

سرعة مذهلة كأنها ركب عجال، تراها إذا رأت الماء العذب ، بين غريق فيه وطاف. يقول:[١]

ويشدو بها القمري حتى كأنه ... أخو صبوة أو دب فيه رحيق
تمر طيور الماء فيها عصائبا ... كركب عجال ضمهن طريق
إذا أبصرت زرق الموارد رفرفت ... عليها فطاف فوقها وغريق

ونراه في معرض تصوير شوقه وحنينه إلى وطنه يصف بعض معالمه .خاصة نيل مصر العذب،وما تزدان به حافتيه من الأشجار ذات الغصون الوارفة يقول:[٢]

أنسيم سرى بنفحة رند ... أم رسول أدى تحية هند ؟
أطربتني أنفاسه فكأني ... ملت سكرا من جرعة من برندي
طال شوقي إلى الديار ولكن ... أين من مصر من أقام بكندي
أخو الوجد لا يزال طروبا ... يتبع الشوق بين سهل وفند [٣]
حبذا النيل حين يجري فيبدي ... رونق السيف واهتزاز الفرند[٤]
تتثني الغصون في حافتيه ... كالعذارى يسحبن وشي الفرند[٥]
قلدتها يد الغمام عقودا ... هي أبهى من كل عقد وبند
كيف لا تهتف الحمام عليه؟ ... وهي تسقى به سلافة بند
هو مرمى نبلي وملعب خيلي ... وحمى أسرتي ومركز بندي[٦]
كلما صورته نفسي لعيني ... قدح الشوق في الفؤاد بزندي

---

١ - ديوان البارودي ج٢ ص٣٢٨

٢ - ديوان البارودي ط دار العودة بيروت ١٩٩٢ ص١٦٩

٣ - الفند : الجبل العظيم

٤ - الفرند : جوهر السيف ووشيه

٥ - الوشي : نقش الثوب . الفرند : نوع من الثياب

٦ - البند : الحزام

وكثيرا ما تغنى " بروضة المقياس[١] " ووصف أيامه الحالية بها وكأنه يأسى لما أصابه من نفي وإبعاد فإن كان قد أبعد فذكرى هذه الأماكن الحالية باقية في نفسه وأيامه الخالية مازالت حية باقية لم تعد عليها الأيام . يقول على سبيل التجريد:[٢]

خليلي هذا الشوق لابد قاتلي ... فميلا إلى" المقياس " إن خفتما فقدي
ففي ذلك الوادي الذي أنبت الهوى ... شفائي من سقمي وبرئي من وجدي
ملاعب لهو طالما ســـــرت بينها ... على أثر اللذات في عيشـــــة رغد
إذا ذكرتها النفس سالت من الأسى ... مع الدمع حتى لا تنهنـــــه بالرد
فيا منزلا رقرقت ماء شـــبيبتي ... بأفنائـــــــه بين الأراكـــة والرند
سرت سحرا فاستقبلتك يد الصبا ... بأنفاسها وانشـــق فجرك بالحمـــد
وزر عليك الأفق طوق غمـــــامة ... خضيبة كف البرق حنانه الرعد
فلســـت بناس ليلة ســـلفت لنا ... بواديه والدنيا تغر بما تســـدي

وانظر إن شئت مزيدا من وصفـــــه لوطنـــــه وما يزدان بـــه من طبيعـــة غناءة في ديوانه ج٢ ص ١٦٦.

ويصف " روضة المنيل" – والتي بها منزله بمصر– فهي روضـــة تزدان بأشجار النخيل والأعناب ، ويستوقفه مشهد السفن وهي تجري فوق مياه النيل ، وقد أحاطت بشاطئيه القصور العالية، كأنها قباب شامخة خلابة المنظر، وهذا المشهد بما يحويه من جمال كأنه ملعب تسرح فيه العيون بين الغصون الملتفة ومسيل الماء، ولا يفوته أن يصور ثرى الوطن الزكية التي تنبعث منه عندما يضربها النسيم. فيقول متحسرا على ماضـــيه الـــدائر ، وأيامه الخوالي التي قضاها به في ظل طبيعته الغنَاءة من قصيدة اســـتهلها

---

١ – روضة المقياس : جزيرة في النيل شرقي الجيزة ، وغربي مصر القديمة

٢ – ديوان البارودي ج١ ص٢١٠

بقوله[١]

أين أيام لذتي وشبابي ... أتراها تعود بعد الذهاب

.....

كل شيء يسلوه ذو اللب إلا ... ماضي اللهو في زمان الشباب

ليت شعري متى أرى روضة المن ... يل ذات النخيل والأعناب

حين تجري السفين مستبقات ... فوق نهر مثل اللجين المذاب

قد أحاطت بشاطئيه قصور ... مشرقات يلحن مثل القباب

ملعب تسرح النواظر منه ... بين أفنان جنة وشعاب

كلما شافه النسيم ثراه ... عاد منه بنفحة وشعاب

ذاك مرعى أنسي وملعب لهوي ... وجنى صبوتي ومغنى صحابي

لست أنساه ما حييت وحاشا ... أن تراني العهد غير صابي

ليس يرعى حق الوداد ولا يذ ... كر عهدا إلا كريم النصاب

فلئن زال فاشتياقي إليه ... مثل قولي باق على الأحقاب

وهذه المناظر التي صورها البارودي - والتي لا تزال مرسومة في نفسه لم تعد عليها الأيام والسنون - تدل على شعور وجداني قوي وحب صادق لوطنه.

وهذا الوصف يمتزج فيه الشعور الوجداني والنفسي بالتصوير المادي الحسي الذي شغف به الشاعر وأعجب به .

ونراه في معرض تصوير شجوه ووجده يصف لنا بعض المشاهد الكونية ،كالبرق والشهب والنجوم ، وصفا سريعا حسب ما تقتضيه الصورة الكلية فيقول[٢]:

---

١ - ديوان البارودي الجزء الأول ص٥٤ وما بعدها

٢ - ديوان البارودي ج١ ص٢٠٨

ومما شجاني بارق طار موهنا ... كما طار منبت الشرار من الزند
يمزق أستار الدجنة ضوءه ... فينسلها ما بين غور إلى نجد
أرقت له والشهب حيرى كليلة ... من السير والآفاق حالكة البرد
فبت كأني بين أنياب حية ... من الرقط أو في برثني أسد ورد
أقلب طرفي والنجوم كأنها ... قتير من الياقوت يلمع في سرد

ومن قصيدة أرسلها إلى صديقه شكيب أرسلان يصف الكواكب والنجوم وشدة تألقها ولمعانها وبياضها الناصع كأنها الحبب فوق الماء ، والحمائم البيض حول مشرع ماء ، أما نجم الثريا فتراه مستديرا أبيض شديد البياض كأنه بيض نعامة في جوف موضعها الذي تبيض فيه وتفرخ. يقول[١]:

أصبحت بعدك في دياجر غربة ... ما للصباح بليلها من مطلع
لا يهتدي فيها لرحلي طارق ... إلا بأنة قلبي المتوجع
أرعى الكواكب في السماء كأن لي ... عند النجوم رهينة لم تدفع
زهر تألق بالفضاء كأنها ... حبب تردد في غدير مترع
وكأنها حول المجر حمائم ... بيض عكفن على جوانب مشرع
وترى الثريا في السماء كأنها ... حلقات قرط بالجمان مرصع
بيضاء ناصعة كبيض نعامة ... في جوف أدحى بأرض بلقع
وكأنها أكر توقد نورها ... " بالكهرباءة " في سماوة مصنع

ويصف قوس الغمام [٢]- في معرض تصوير حاله ووحدته ووحشته

---

١ - ديوان البارودي ج٢ ص٢٤١ ، ٢٤٢

٢ - قوس الغمام المراد به قوس قزح " بوزن عمر " وهو حادث جوي يظهر في السحاب بشكل قوس يتكون من الألوان : البنفسجي ، فالنيلي فالأزرق فالأخضر فالأصفر فالبرتقالي فالأحمر . وسببه انحلال أشعة الشمس إلى هذه الأضواء السبعة في كريات ماء السحاب التي تفعل بضوء الشمس فعل المنشور البللوري . والقوس في الأصل آلة على شكل نصف دائرة ترمى بها السهام ونحوها . الغمام : السحاب

واغترابه - فيقول:[١]

كأن قوس الغمام الغر قنطرة ... معقودة فوق طامي الماء سيال[٢]

إذا الشعاع تراءى خلفها نشرت ... بدائعا ذات ألوان وأشكال

ولا شك أنها صورة جميلة لقوس الغمام فقد وصفه رسما ووسما، وصفه في انحنائه وتقوسه وفي ألوانه المتعددة المتناسقة الجذابة.

ويصف الليل في أكثر من موضع في منفاه غايته منه تصوير شدة معاناته ووجده ، ومنها قوله[٣] في تصوير شدة سواده وبطئ انقضائه.

والليل مرهوب الحمية قائم ... في مسحه كالراهب المتلفع

متوشح بالنيرات كباسل ... من نسل حام باللجين مدرع

حسب النجوم تخلفت عن أمره ... فوحي لهن من الهلال بأصبع

ما زلت أرقب فجره حتى انجلى ... عن مثل شادخة الكميت الأتلع

فالليل الذي هو منة الله على عباده - فيه الراحة والسكينة - أصبح مصدر وحشة ورهبة للشاعر فوصفه وصفا انطباعيا حسب ما يمليه عليه رهبة المشهد ووحشة الظلمة فشبهه بالراهب تارة وبالشجاع المدرع أخرى واستعار له أصبع ثالثة وبالفرس الكميت رابعة وفي كل هذا تشخيص وتجسيد للصورة .

والبارودي يميل في وصفه على الجانب الحسي المادي ولكن حسية تشعر فيها بالحياة والحركة في الموصوف وكأنه ماثل أمامنا نراه بأبصارنا

---

١ - ديوان البارودي ج٣ ص١٠٥ ، ١٠٦

٢ - غمامة غراء : بيضاء حسنة المنظر . القنطرة :الجسر يبنى على الماء للعبور. معقودة : منعطفة .

طام : كثير . سيال : مبالغة من سال الماء ونحوه أي طغى

٣ - ديوان البارودي ج٢ ص٢٤٣

ونسمعه بآذاننا بل ونتجاوب معه بأحاسيسنا ومشاعرنا. وقد علق د. شوقي ضيف على هذه الصورة [١] بقوله " وقد أكثر البارودي من وصف الليل بسرنديب وما يجري في سمائه من كواكب ونجوم وصفا بديعيا بمثل قوله: والليل مرهوب الحمية قائم..... الأبيات

ويقول[٢] واصفا ليلة مرت به مبينا شدة معاناته ووجده ولوعته وواصفا سهاده وهو يرقب النجوم وقد شجاه برق لمع في منتصف هذه الليلة فأرقه وكأنه لشدة سهاده بين أنياب حية رقطاء أو بين مخلبي أسد ورد.

أبيت عليلا في سرنديب ساهرا ... أعالج ما ألقاه من لوعتي وحدي
أدور بعيني لا أرى وجه صاحب ... يريع لصوتي أو يرق لما أبدي
ومما شجاني بارق طار موهنا ... كما طار منبت الشرار من الزند [٣]
يمزق أستار الدجنة ضوءه ... فينسلها ما بين غور إلى نجد[٤]
أرقت له والشهب حيرى كليلة ... من السير والآفاق حالكة البرد
فبت كأني بين أنياب حية ... من الرقط أو في برثني أسد ورد
أقلب طرفي والنجوم كأنها ... قتير من الياقوت يلمع في سرد [٥]

ونراه يصف القطا الذي تمنى أن يحمل رسالة شوق إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم . فقد مرت عليه جائعة مسرعة كأنها لسرعتها موصل برقي " تلغرافا " لا شيء يسبقها إلا بنانه متى حبسه في مديح المصطفى صلى الله عليه وسلم. يقول في قصيدته

---

١ - البارودي رائد الشعر الحديث دار المعارف ص١١٨

٢ - ديوان البارودي ج١ ص ٢٠٧

٣ - الزند : العود الذي تقدح به النار وتشعل

٤ - الدجنة : الظلمة

٥ - القتير : رءوس مسامير الدروع . الياقوت : جوهر معروف وأجوده الأحمر القاني

كشف الغمة في مدح سيد الأمة :

ليت القطا حين سارت غدوة حملت	عني رسائل أشواقي إلى إضم
مرت علينا خماصا وهي قاربة	مر العواصف لا تلوي على إرم
لا تدرك العين منها حين تلمحها	إلا مثالا كلمع البرق في الظلم
كأنها أحرف برقية نبضت	بالسلك فانتشرت في السهل والعلم
لا شيء يسبقها إلا إذا اعتلقت	بنانتي في مديح المصطفى قلمي

ولا شك أنها توطئة جيدة ومناسبة حسنة للدخول في موضوعه الأساسي وهو مديح المصطفى صلى الله عليه وسلم.

ولم يقتصر الوصف عند البارودي على تصوير المحسوسات فحسب ، بل تخطاه إلى وصف الأمور المعنوية الدقيقة فنراه يصف طيف ابنته " سميرة " الذي ألمَ به ليلا واخترق سدفة الظلماء وقطع الأخضر واليابس والسهل والحزن . وتعجب من شأن هذا الطيف الذي ألم به رغم هذه المسافات الشاسعة التي يحويها المحيط الهندي، وقد ساقه إليه الشوق والهوى الجارف . يقول:[١]

تأوب طيف من "سميرة "زائر	وما الطيف إلا ما تريه الخواطر [٢]
طوى سدفة الظلماء والليل ضارب	بأرواقه والنجم في الأفق حائر
فيا لك من طيف ألم ودونه	محيط من البحر الجنوبي زاجر
تخطى إلى الأرض وجدا وما له	سوى نزوات الشوق حاد وزاجر
ألَم ولم يلبث وسار وليته	أقام ولو طالت علي الدياجر
تحمل أهوال الظلام مخاطرا	وعهدي بمن جادت به لا تخاطر

وينتقل البارودي بعد أن وصف طيف ابنته إلى وصفها هي .فبين أنها

---

١ - ديوان البارودي ج٢ ص٧٧ وما بعدها

٢ - تأوب : أتاه ليلا

خماسية لا تزال غرة صغيرة ، وهى كريمة نظائرها ولداتها وكلهن غوافل عن لأواء الحياة وشدائدها فلا يعرفن غير الوجه الحسن منها ويعشن في رغد لا يدرين عما تخبئه الأيام من نوائب وخطوب وقد تعودت وأخواتها العيشة اللينة الكريمة في ظل والد رحيم وأصل كريم وبيت كثير المناقب والمفاخر . ويشبههن بنجوم الثريا التي تتألق لامعة في السماء ، وقد مثلتها له الذكرى رغم المسافات الشاسعة كأنها شاخصة ماثلة أمامه يراها بعينه ويلمسها بيده. يقول:[١]

خماسية لم تدر ما الليل والسرى ... ولم تنحسر عن صفحتيها الستائر
عقيلة أتراب توالين حولها ... كما دار بالبدر النجوم الزواهر [٢]
غوافل لا يعرفن بؤس معيشة ... ولا هن بالخطب الملم شواعر
تعودن خفض العيش في ظل والد ... رحيم وبيت شيدته العناصر[٣]
فهن كعنقود الثريا تألقت ... كواكبه في الأفق فهي سوافر[٤]
تمثلها الذكرى لعيني كأنني ... إليها على بعد من الأرض ناظر
فطورا أخال الظن حقا وتارة ... أهيم فتغشى مقلتي السمادر[٥]
فيا بعد ما بيني وبين أحبتي ... ويا قرب ما التفت عليه الضمائر
ولولا أماني النفس وهي حياتها ... لما طار لي فوق البسيطة طائر
فإن تكن الأيام فرقن بيننا ... فكل امرئ يوما إلى الله صائر

فقد ترجم البارودي إحساساته تجاه أبنائه وحبه لهم وحدبه عليهم .

---

١ - ديوان البارودي ج٢ ص٧٨، ٧٩

٢ - العقيلة : كريمة الحي

٣ -العناصر : المناقب والمفاخر والأصول الكريمة

٤ - يشبه أولاده في صغرهن والتفافهن حول والدهم بعنقود العنب

٥ - السمادر :جمع سمدور وهو غشاوة العين وضعف البصر

ونقل مشاعره دون مواربة وبين أنه لولا الأمل في عودته ورؤيته لهم لهلك كمدا وحسرة.

وحتى الأشياء المعنوية الدقيقة نرى البارودي بلغ فيها مبلغا عظيمـا فها هو يصف الهوى وقوة سلطانه وشدة غلبته إذ يخرج الرزين عن رزانته ووقاره. فيقول[1]:

رضيت من الدنيا بما لا أوده ... وأي امرئ يقوى على الدهر زنده
أحاول وصلا والصدود خصيمه ... وأبغي وفاء والطبيعة ضده
حسبت الهوى سهلا ولم أدر أنه ... أخو غدرات يتبع الهزل جده
تخف له الأحلام وهي رزينة ... ويعنو له من كل صعب أشده
ومن عجب أن الفتى وهو عاقل ... يطيع الهوى فيما ينافيه رشده
يفر من السلوان وهو يريحه ... ويأوى إلى الأشجان وهي تكده
وما الحب إلا حاكم غير عادل ... إذا رام أمرا لم تجد من يصده
له من لفيف الغيد جيش ملاحة ... تغير على مثوى الضمائر جنده
ذوابله قامته وسيوفه ... لحاظ العذاري والقلائد سرده
إذا ماج بالهيف الحسان تأرجت ... مسالكه واشتق في الجو نده
فأي فؤاد لا تذوب حصاته ... غراما وطرف ليس يقذيه سهده
بلوت الهوى حتى اعترفت بكل ما ... جهلت فلا يغررك فالصاب شهده
ظلوم له في كل حي جريرة ... يضج له غور الفضاء ونجده
إذا احتل قلبا مطمئنا تحركت ... وساوسه في الصدر واختل وكده
فإن كنت ذا لب فلا تقربنه ... فغير بعيد أن يصيبك حده
ولو كنت أولى بالنصيحة لو صغا ... فؤادي ولكن خالف الحزم قصده

---

١ - ديوان البارودي ج١ ص ١٣٩

الشوق والحنين

الاغتراب عن الوطن و الأهل من أقوي المحركات للمشاعر الإنسانية ، فضلاً عن مشاعر الشعراء الذين يتميزون بحاسة مرهفة و يمتلكون أداة التعبير عن هذه المشاعر، حيث يصيغونها شعراً حياً نابضاً بالصدق، ينفسون خلاله عن مشاعر الغربة و الوحشة ولا يدرك الشوق إلا من يكابده.(١)

و عاطفة الحنين من أصدق العواطف الإنسانية ، إذ يحركها نزوع و رغبة جامحة إلي رؤية الوطن الأول بما يحويه من طبيعة حية و صامتة ، وأهل وعشيرة وأصدقاء أحباء ، وغير ذلك ،و إذا اجتمع للشاعر العاطفة الصادقة النبيلة وحركها عامل الإبعاد والمنفي أنتج لنا شعراً مؤثرا وأمدنا بصور حية نابضة بمشاعر صادقة لا تشوبها شائبة رياء أو مصلحة.

يقول د/شوقي ضيف عن شعر الحنين إلى الوطن عنده(٢) :

" وإذ كانت آماله السياسية قد أخفقت وكتب عليه النفي إلى سرنديب سبعة عشر عاماً فإن حبه لوطنه ظل معينه لا ينضب في نفسه، بل لقد سلك به سبيلا من الحنين إلى الوطن لم يعرف لشاعر من قبله .

وحقاً الحنين إلى الوطن قديم في الشعر العربي إذ يصعد إلى العصر الجاهلي حين كان الشعراء يتغنون دائماً بالأطلال والديار وذكريات حبهم الداثر، وقد مضى من خلفهم من الشعراء يحاكونهم طوال العصور التالية،

---

١ - شعر الأسر والسجن فى الأندلس جمع د. نسيم عبد العظيم ،مطبعة الخانجى بالقاهرة ،الأولى ١٩٩٥م ص١٣٢ بتصرف

٢ - البارودي رائد الشعر الحديث دار المعارف ص١٢٢

غير أنهم جميعاً لا يبلغون منه الألم و الحسرة و الحزن و اللوعة مابلغه البارودي في حنينه بمنفاه إلى وطنه وهو نفسه له حنين قديم قبل المنفي حين كان يغزو في كريت و يسهم في الحرب الروسية..... وهو حينئذ كان الأمل ينبعث في أرجاء نفسه بأنه عائد إلي وطنه و أنه بالغٌ فيه ما يطمح إليه من تسنم ذرى المجد – وهو لذلك لا يبالغ في أساه ولا في حزنه ، أما في المنفى فقد وقعت غربته عن وطنه في نفسه أشد وقع إذ غلب اليأس الأمل في عودته وتعمقه حزن شديد ولوعة محرقة فحمل قيثارته وأخذ يتغنى بعواطفه الكامنة في أعماقه ويذرف الدموع مدرارا مصورا جزعه لفراق الوطن وفراق الزوج الشابة وبناته وفراق أصدقائه وتحطيم آماله السياسية وغير السياسية "

وللبارودي شعر رائق في تصوير شوقه وحنينه ، عبر خلاله عن شعور صادق وعاطفة قوية ، دار معظمه حول تصوير ما يكابده من شوق جامح وحنين ممض إلى الأماكن والأشخاص والأهل والوطن ، فنراه يئن أنينا موجعا ويصور لأواءه وشدائده في المنفى ، ثم يهرع مصورا مدى اشتياقه للقاء أحبائه وثرى وطنه وثرى أماكن لها وقع في نفسه.

وقد أسعفته ربة الشعر في ذلك ، فمن خلالها نقل إلينا أحاسيسه ومشاعره وخواطره حول الحياة والأحياء ، ولاشك أن في تصويره لحنينه تخفيف من غلواء المنفى وإفضاء بما في النفس من انعكاسات الماضي على مرآة الحاضر ، فهو بمثابة الزاد النفسي للشاعر ، إذ يرى أن ماضيه تاريخ حافل بالمكرمات والأيام الحالية التي تستوجب الحنين والشوق إليها .

وعبر البارودي عن شوقه إلى وطنه بما يحويه من طبيعة حية وصامتة بطرق مختلفة فنراه يشبه نفسه في شوقه وحنينه إلى وطنه بالإبل

العطاش والتي طال ظمؤها ويتمنى أن يعود إليه يشرب من نيلـه العـذب ويقيل تحت ظل أيكة من أيكه.يقول:[١]

متى ترد الهيم الخوامس منهلا ... تبل به الأكباد وهي عطاش[٢]

أرى الغيث عم الأرض من كل جانب ... وموضع رجلي لم يصبه رشاش

فهل لهلة من جدول النيل ترتوي ... بها كبد ظمآنة ومشاش [٣]

وهل من مقيل تحت أفنان سدرة ... لها من زرابي النبات فراش ؟

لدى أيكة ريا الغصون كأنما ... عليها من الزهر الجني رشاش[٤]

ترى الزهر ألوانا يطير مع الصبا ... كما هاج إبان الربيع فراش

ديار يعيش المرء فيها منعما ... وأطيب أرض الله حيث يعاش

فيا رب رشني كي أعيش مسددا ... فقد يستقيم السهم حين يراش[٥]

وفي توالي استفهامات الشاعر ما يدل على حرق وجده لهذا الإبعـاد عن الوطن الغنَاء الذي قد ترك بصمات طيبة في نفسه لا يمكن محوها .

وبنبرة عالية وصوت جهور يصور شوقه وحنينه إلى وطنه ، ويبين أن شوقه إليه باق رغم الاغتراب والإبعاد وأنه لن يصغى للوم لائـم ولـن يتأثر بعزل عازل . فكم هو مشتاق إلى شربة من ماء وطنه وضجعة على أرضه وشمة من ريحه الطيبة اللينة .

يقول:[١]

---

١ - ديوان البارودي ج٢ ص١٨٥

٢ - الهيم :الإبل العطاش. الخوامس:الإبل التي وردت الماء في اليوم الخامس ،ويقال الخمس شر الإظماء

٣ - النهل : الشرب الأول . المشاش : رؤوس العظام اللينة ، والمشاش : النعس

٤ - الأيكة : الشجر الكثيف الملتف . الرياش : اللباس الحسن الفاخرة ، والرياش الزينة

٥ - رشني : فعل أمر يراد به الدعاء .من راشه الله تعالى : إذا أصلح حاله وأعانه وأنعشه

لبيك يا داعي الأشواق من داعي ... أسمعت قلبي وإن أخطأت أسماعي
مرني بما شئت أبلغ كل ما وصلت ... يدي إليه فإني سامع واعي
فلا وربك ما أصغي إلى عذل ... ولا أبيح حمى قلبي لخداع

.....

يا حبذا جرعة من ماء محنية ... وضجعة فوق برد الرمل بالقاع[٢]
ونسمة كشميم الخلد قد حملت ... ريا الأزاهير من ميث وأجراع [٣]
يا هل أراني بذاك الحي مجتمعا ... بأهل ودي من قومي وأشياعي ؟
وهل أسوق جوادي للطراد إلى ... صيد الجآزر في خضراء ممراع
منازل كنت منها في بلهنية ... ممتعا بين غلماني وأتباعي
إذا أشرت لهم في حاجة بدروا ... قضاءها قبل أن يرتد إلماعي

وقد عكست الأبيات من الرابع إلى نهاية الأبيات مدى تمني الشاعر ورغبته الجامحة في العودة إلى وطنه وإلى منازله التي كان منها في " بلهنية " على حد قوله.

وإنه ليشجيه ويحزبه ويستخفه الطرب ، لمجرد أن يرى محزونا أو مبتئسا وكما قال القائل إن المصائب يجمعن المصابينا فنراه يقول وقد سمع باكية بليل[٤]:

وباكية شجت قلبي بلحن ... تهيج له المسامع والقلوب

---

١ - ديوان البارودي ج٢ ص٢٥٦

٢ - الجرعة من الماء كاللقمة من الطعام . والمحنية من الوادي منعرجه ومنعطفه

٣ - المراد بشميم الخلد : نسيم الجنة دار الخلود والبقاء . الميث : جمع ميثاء وهي الأرض السهلة اللينة من غير رمل. والأجراع : جمع جرع وهي الأرض الرملية السهلة اللينة المنبت.

٤ - ديوان البارودي ج١ ص٧٧

سألت فقيل قد فقدت حبيبا وهل يبقى على الدنيا حبيب
بكيت لها ولم أفهم صداها وقد يبكي من الطرب الغريب

فقد أنطقه الموقف المشجي بالحكمة واستغل أسلوب الحوار السريع ليضفي على الحدث روح الحياة والحيوية والحركة.

وترى" رب السيف " يبكي ويئن، ويلتمس لنفسه العذر في البكاء ويرى أن انسكاب

دمعه إنما هو بسبب شوقه المضني وجرحه الغائر ويصف نفسه الأنة الكليلة فيقول:[١]

لكل دمع جرى من مقلة سبب وكيف يملك دمع العين مكتئب
لولا مكابدة الأشواق ما دمعت عين ولا بات قلب في الحشا يجب
فيا أخا العذل لا تعجل بلائمة علي فالحب سلطان له الغلب
لو كان للمرء عقل يستضيء به في ظلمة الشك لم تعلق به النوب
ولو تبين ما في الغيب من حدث لكان يعلم ما يأتي ويجتنب
لكنه غرض للدهر يرشفه بأسهم مالها ريش ولا عقب
فكيف أكتم أشواقي وبي كلف تكاد من مسه الأحشاء تنشعب ؟
أم كيف أسلو ولي قلب إذا التهبت بالأفق لمعة برق كاد يلتهب
أصبحت في الحب مطويا على حرق يكاد أيسرها بالروح ينشعب
إذا تنفست فاضت زفرتي شررا كما استنار وراء القدحة اللهب
لم يبق لي غير نفسي ما أجود به وقد فعلت فهل من رحمة تجب ؟
كأن قلبي إذا هاج الغرام به بين الحشا طائر في الفخ يضطرب
لا يترك الحب قلبي من لواعجه كأنما بين قلبي والهوى نسب

---

١ - ديوان البارودي ج١ ص ٦١ ،٦٢ ، ٦٣

فقد برَح به الحب والشوق واشتدت به لواعجه وحرقه فلا يلمه لائم ولا يعذله عاذل.

ونراه في موضع آخر يشكو الغربة والوحشة ويصور شدة أنينه وانسكاب دمعه وطول ليله ووحدته ويعبر عن مدى اشتياقه إلى وطنه والذي كنَى عنه بنجد والحجاز فيجرد من نفسه شخصا آخر يخاطبه ويفضي من خلال هذا الخطاب بمكنون نفسه ولواعج ذاته. فيقول:(١)

هل لسلام العليل رد ؟ أم لصباح اللقاء وعد
أبيت أرعى الدجى بعين غذاؤها مدمع وسهد
لا صاحب إن شكوت حالي يرثي ولا سامع يرد
بين قنان على ثراها من سترات الغمام برد
أظل فيها أنوح فردا وكل نائي الديار فرد
فمن لقلبي بظبي واد بين وشيج الرماح يعدوا؟(٢)
صار بحكم الهوى مليكي وما لحكم الهوى مرد
يا سعد قل لي فأنت أدرى متى رعان العقيق تبدو ؟(٣)
أشتاق نجدا وساكنيه وأين مني الغداة نجد(٤)
ذاب فؤادي بحب ليلى بالفؤاد براه وجد

---

١ - الديوان ص١٦٧

٢- الظبي : الغزال وتشبه به الحسناء في الرشاقة وحسن طول العنق . ووشيج الرماح : الرماح المشتبكة ، يكني بهذا عن أن محبوبته في منعة من قومها

٣ - الرعان : وهو أنف يتقدم الجبل أو هو الجبل الطويل . العقيق : الوادي وكل مسيل شقه ماء السيل والشاعر يكني به عن وطنه وديار أهله

٤ - نجد : للأراضي العالية في وسط جزيرة العرب

فكيف أمسي بغير قلب ؟ يا نور عيني وكيف أغدو ؟
لكل شيء وإن تمادى حد وما للغرام حد
فليس قبل الغرام قبل وليس بعد الغرام بعد
فهل لنيل الوصال يوما بعد مديد الصدود عهد ؟
وهل أراني رفيق حاد بمدح خير الأنام يحد
عسى إلهي يفك أسري فهو فعول لما يود

وله في تصوير شوقه إلى وطنه مصر نونية طويلة في الجزء الرابع ص ٢٥ وما بعدها منها قوله مناديا إياها نداء الصب المستهام متمنيا لقاءها لتعود إليه أيامه الحالية في ظل أهله وما تأنس به نفسه ويتمنى أن ترد عليه الليالي بعض ما سلبت، وتراه فيها يتغزل غزلا ليس مرماه تصوير إعجاب حقيقي بفتاة ، بل مرماه تصوير وجد وحنين جارف إلى دياره ومن فارقهم من أهل وصحبة فيقول متحيرا ولها:[1]

أعائد بك يا ريحانة الزمن فيلتقي الجفن بعد البين والوسن
أشتاق رجعة أيامي لكاظمة وما بي الدار لولا الأهل والسكن
فهل ترد الليالي بعدما سلبت ؟ أم هل تعود إلى أوطانها الظعن
أهنت للحب نفسي بعد عزتها وأي ذي عزة للحب لا يهن ؟
لو لم يكن في الهوى سر لما ظهرت بوحي قدرته في العالم الفتن
فكيف أملك نفسي بعدما علقت بي الصبابة حتى شفني الوهن
لولا جريرة عيني ما سمحت بها للدمع تسفحه الأطلال والدمن
دعت إلى الغي قلبي فاستبد به شوق تولد فيه الهم والشجن

والبارودي في بيته قبل الأخير متأثر بالشعراء القدماء الذين وقفوا على أطلال المحبوبة مستلهمين منها ماضيهم الخالي.

---

١ - ديوان البارودي ج٤ ص٢٥ وما بعدها

ونراه يدعو لديار ه بالسقيا وزيادة الخضرة والنضرة والإمراع وطيب الزهر . وهي جديرة بالدعاء فقد نمت أسرته فيهـا وتشـعبت وتفرعـت والدعاء بالسقيا لديار الأحبة من سنن الشعراء من قبله .يقول:[١]

فيا " مصر " مد الله ظلك وارتوى ... ثراك بسلسال من النيل دافق
ولا برحت تمتار منك يد الصبا ... أريجا يداوي عرفه كل ناشق
فأنت حمى قومي ومشعب أسرتي ... وملعب أترابي ومجرى سوابقي
بلاد بها حل الشباب تمائمي ... وناط نجاد المشرفي بعاتقي
إذا صاغها بهزار فكري تصورت ... لعيني في زي من الحسن رائق
تركت بها أهلا كراما وجيرة ... لهم جيرة تعتادني كل شارق
هجرت لذيذ العيش بعد فراقهم ... وودعت ريعان الشباب الغرانق
فهل تسمح الأيام لي بلقائهم ... ويسعد في الدنيا مشوق بشائق
لعمري لقد طال النوى وتقطعت ... وسائل كانت قبل وشي المواثق
فإن تكن الأيام ساءت صروفها ... فإني بفضل الله أول واثق
فقد يستقيم الأمر بعد اعوجاجه ... ويرجع للأوطان كل مفارق

وكان من دواعي شوق الشاعر إلى أهله وذويه وجوده بين أنـاس لا دين لهم ولاعهد قبيحي الهيئة سيئي العادات فنراه يقول بعد أن صور أهل سرنديب وقصر قامتهم وقذارة هيأتهم وفساد عبادتهم.[٢]

إذا أراطنوا بعضا سمعت لصوتهم ... عزيفا كجن في المفاوز هتف[٣]
فها أنا منهم بين شمل مبدد ... ومن حسراتي بين شمل مؤلف
أحن إلى أهلي ، أذكر جيرتي ... وأشتاق خلاني ،وأصبوا لمألفي

---

١ - ديوان البارودي ج٢ ص٣٦١

٢ - ديوان البارودي جـ٤ صـ٢٦٦

٣ - راطنه : كلمه بلسان أعجمي لا تفهمه العرب ؛والعزيف :جرس يسمع بالمفاوز

فلا أنا أسلوا عن هواي فأنتهي ولا أنا ألقى من أحب فأشتفي

فهو يعاني الشوق ويكابد الهوى فلا يستطيع أن يسلو من يهوى.

ويبلغ به الشوق كل مبلغ فيطلب طبيبا لداء الحب الذي استولى على قلبه والشوق الذي قرح كبده ونار الجوى التي أضنته، ويعترف رب السيف بجزعه وعجزه عن الصبر فنراه يبكي ويئن ويصيح بمثل قوله:[١]

هل من طبيب لداء الحب أو راقي ؟ يشفي عليلا أخا حزن وإيراق

قد كان أبقى الهوى من مهجتي رمقا حتى جرى البين فاستولى على الباقي

حزن براني وأشواق رعت كبدي يا ويح نفسي من حزن وأشواق

أكلف النفس صبرا وهي جازعة والصبر في الحب أعيا كل مشتاق

لا في سرنديب لي خل ألوذ به ولا أنيس سوى همي وإطراقي

أبيت أرعى نجوم الليل مرتقبا في قنة عز مرقاها على الراقي

ولعله في بيته الثالث نظر إلى أبي فراس الحمداني في أسره وهو يقول:[٢]

مصابي جليل والعزاء جميل وظني بأن الله سوف يديل

جراح وأسر واشتياق وغربة أحمّل أوأني بعدها بحمول

ونراه يتخذ من خطاب الطبيعة سبيلا لتصوير شوقه واسترجاع أيامه الخوالي التي نعم بها في ظل أهل ودودين ووطن حنون فالطائر الذي يبكي على غصنه يشجيه ويذكره بماضيه الحالي وشبابه الذي قضاه في المرح والاختيال وقد مضى عهد الفتوة والنشاط فحق له التحسر والتأسف.

---

١ - ديوان البارودي ج٢ ص٣٢١

٢ - ديوان أبي فراس الحمداني شرح د. خليل الدويلفي - دار الكتاب العربي - بيروت - الأولى ١٩٩١م - ص٢٥٢

يقول:[١]

وأنت يا طائرا يبكي على فنن ... نفسي فداؤك من ساق على ساق
أذكرتني ما مضى والشمل مجتمع ... " بمصر" والحرب لم تنهض على ساق
أيام أسحب أذيال الصبا مرحا ... في فتية لطريق الخير سباق
فيا لها ذكرة أشب الغرام بها ... نارا سرت بين أردافي وأطواق
عصر تولى وأبقى في الفؤاد هوى ... يكاد يشمل أحشائي بإحراق

وفي نهاية أبياته نراه يتصبر بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، إذ هو قدر الله و قدر الله واقع لا محالة ، فلا راد لقضائه وهو راض بقضائه سبحانه وموقن بأن رجاءه لابد حاصل وأنه سبحانه وتعالى سيحفظه ويرعاه في منفاه ويخفف عنه محنته ، ويبين أنه ما هو إلا فرد من خلق الله تعالى يلاقي من المتاعب والمشاق ما يلاقيه غيره. يقول: [٢]

والمرء طوع الليالي في تصرفها ... لا يملك الأمر من نجح وإخفاق
على شيم الغوادي كلما برقت ... وما على إذا ضنت برقراق
فلا يعبني حسود أن جرى قدر ... فليس لي غير ما يقضيه خلاقي
أسلمت نفسي لمولى لايخيب له ... راج على الدهر والمولى هو الواقي
وهون الخطب عندي أنني رجل ... لاق من الدهر ما كل امرئ لاقي
يا قلب صبرا جميلا إنه قدر ... يجري على المرء من أسر وإطلاق
لابد للضيق بعد اليأس من فرج ... وكل داجية يوما لإشراق

ويصور لنا مشهد ترحله عن وطنه تصويرا ينم عن تأثر واضح بشعراء العربية القدامى حين صوروا البرق الآتي من جهة منازل الأحبة فاتجهوا بأعناقهم نحوه. ويشبه حركات البرق السريعة ومضاته بخفوق

---

١ - ديوان البارودي ج٢ ص ٣٢٦

٢ - الديوان ج٢ ص٣٢٧

قلب العاشق . يقول :[١]

أسلة سيف أم عقيقة بارق ... أضاءت لنا وهنا سماوة بارق؟
لوى الركب أعناقا إليها خواضعا ... بزفرة محزون ونظرة وامق
وفي حركات البرق للشوق آية ... تدل على ما جنه كل عاشق
تفض جفونا عن دموع سوائل ... وتفري صدودا عن قلوب خوافق
وكيف يعي سر الهوى غير أهله ... ويعرف معنى الشوق من لم يفارق؟
لعمر الهوى غني لدث شفني النوى ... لفي وله من سورة الوجد ماحق

ويتمنى البارودي أن يعود إليه صباه وما يصحبه من فتوة وقوة ويوضح أن هذا الماضي الحالي إذا لاحت مخايله في نفسه أثار همومه وأشجاه وأضج مضجعه. يقول :[٢]

ردوا علي الصبا من عصري الخالي ... وهل يعود سواد اللمة البالي ؟
ماض من العيش ما لاحت مخايله ... في صفحة الفكر الا هاج بلبالي
سلت قلوب فقرت في مضاجعها ... بعد الحنين وقلبي ليس بالسالي
لم يدر من بات مسرورا بلذته ... أنى بنار الأسى من هجره صالي

واسمعه ينادي وطنه نداء متوجع برَحه الشوق ويدعو له بالسلامة والنعيم ولا غرو فقلبه مرهون بحبه مقيم على وده. يقول: [٣]

واطول شوقي إليك يا وطني ... وإن عرتني بحبك المحن
أنت المنى والحديث إن أقبل الص ... بح وهمي إن رنق الوسن
فكيف أنساك بالمغيب ولي ... فيك فؤاد بالود مرتهن
لست أبالي وقد سلمت على الدَ ... هر إذا ما أصابني الحزن

---

١ - السابق ج٢ ص ٣٥٤ ، ٣٥٥

٢ - ديوان البارودي ج٣ ص ٩٣ ، ٩٤

٣ - الديوان ج ٤ ص٦٨ ،٦٩

وكان من دواعي شجنه وحزنه وشوقه وحنينه إلى وطنه ما صار بين بعض أهل المنفى من الأحقاد والبغض والملامة وكأنه يقول لوطنه أشكو إليك قلة الصديق وانعدام الرفيق. يقول: [١]

ليت بريد الحمام يخبرني ... عن أهل ودي فلي بهم شجن
أهم على الود أم طاف بهم ... واش أراهم خلاف ما يقنوا ؟
فإن نسوني فذكرتي لهم ... وكيف ينسى حياته البدن
أصبحت من بعدهم بمضيعة ... تكثر فيها الهموم والإحن
بين أناس إذا وازنتهم ... بالذر عند البلاء ما وزنوا

هذا وإن كان البارودي قد أبدى شوقه وحنينه إلى وطنه بصفة عامة فإن لبعض الأماكن إلى نفسه مزيد شوق وحنين - كجزيرة المقياس بالجيزة - فبعد أن وصفها وصفا دقيقا مبينا ما تزدان به من أشجار النخيل والأعناب. يبين في نهاية وصفه أنه وإن زال عنها فاشتياقه إليها باق. يقول:[٢]

لست أنساه ما حييت وحاشا ... أن تراني لعهده غير صابي
ليس يرعى حق الوداد ولا يذ ... كر عهدا إلا كريم النصاب
فلئن زال فاشتياقي إليه ... مثل قولي باق على الأحقاب

والقصيدة تصور الحنين الجارف والشوق المضني لهذه الروضة الغناء ولم لا وهي كما قال عنها:[٣]

ذاك مرعى أنسي وملعب لهوي ... وجنى صبوتي ومغنى صحابي

فهي بالنسبة له سجل تاريخي وضاء لحياة ملؤها الهناءة والسعادة فحق له أن تظل ذكراها في نفسه ما حيا.

---

١ - الديوان ج ٤ ص ٦٩ ، ٧٠
٢ - السابق ج ١ ص ٥٥
٣ - السابق نفس الصفحة

ونراه يدعو لروضة المنيل- والتي بها منزله- بالسقيا ويتغنى بأدواحها وأشجارها وتطريب الحمائم بها وحق له التغني فهي كما قال مرعى جياده ومأوى جيرانه وحمى قومه وفيها اكتسب أدبه ومعارفه يصبو إليها رغم البعاد . ويتمنى أن يعيش بها ولو فقيرا معدما. يقول:[1]

يا روضة النيل لا مستك بائقة ... ولا عدتك سماء ذات أغداق

ولا برحت من الأوراق في حلل ... من سندس عبقري الوشى براق

يا حبذا نسم من جوها عبق ... يسري على جدول بالماء دفاق

بل حبذا دوحة تدعو الهديل بها ... عند الصباح قمارى بأطواق

مرعى جيادي ومأوى جيرتي وحمى ... قومي ومنبت آدابي وأعراقي

أصبو إليها على بعد ويعجني ... أني أعيش بها في ثوب إملاق

وكيف أنسى ديارا قد تركت بها ... أهلا كراما لهم ودي وإشفاقي

إذا تذكرت أياما بهم سلفت ... تحدرت بغروب الدمع أماقي

فيا بريد الصبا بلغ ذوي رحمي ... أني مقيم على عهدي وميثاقي

وإن مررت على المقياس فاهد له ... مني تحية نفس ذات أعلاق

وهذه المشاعر الدافقة والحب الجارف من البارودي لوطنه ، إن دل على شيء فإنما يدل على طيب عنصر وحسن انتماء وصدق ود وحسن خلق ، فهو لا يزال – رغم بعد الشقة وطول الأمل – يحفظ لأصدقائه وخلانه ووطنه بكل ما يحوي من مظاهر حبا مبرحا وشوقا مقرحا وحنينا مسهدا ، ولا يخفى علينا من أن خطاب ما لا يعقل يدل على الوله والحيرة وشدة التخبط .

وقد صور البارودي شوقه إلى الأماكن المقدسة بأرض الحجاز ، ولعله في ذلك يفزع إلى الله تعالى مرسل الرسل وكاشف الكربات أن يفرج

---

١ - الديوان ج٢ ص ٣٢٣ وما بعدها

كربه ويزيل همه ، والناس في الكربات - غالبا ما تفزع إلى عقائدها فهي المحرك الأول لها . ولاشك أن تذكر مهبط الوحي ومنبع الرسالة مفزع للشاعر وملاذ له في تخفيف ألمه . ويدعو للديار بالسقيا تقليدا متبعا لسابقيه فيقول في قصيدته كشف الغمة في مدح سيد الأمة والتي استهلها بقوله:

يا رائد البرق يمم دارة العلم	واحد الغمام إلى حي بذي سلم
أدعو إلى الدار بالسقيا وبي ظمأ	أحق بالري لكني أخو كرم
منازل لهواها بين جانحتي	وديعة سرها لم يتصل بفم
إذا تنسمت منها نفحة لعبت	بي الصبابة لعب الريح بالعلم
أدر على السمع ذكراها فإن لها	في القلب منزلة مرعية الذمم
عهد تولى وألقى في الفؤاد له	شوقا يفل شباة الرأي والهمم
إذا تذكرته لاحت مخائله	للعين حتى كأني منه في حلم
فما على الدهر لو رقت شمائله	فعاد بالوصل أو ألقى يد السلم
تكائدتني خطوب لو رميت بها	مناكب الأرض لم تثبت على قدم
فمن يرد على نفسي لبانتها	أو من يجير فؤادي من يد السقم
ليت القطا حين سارت غدوة حملت	عني رسائل أشواقي إلى إضم

ويقول الأستاذ عمر الدسوقي عن شوق البارودي إلى وطنه:[1] ولقد زاده النفي حبا في وطنه وتعلقا به وترديدا لمحاسنه ، ويتمثله على البعد جنة دانية القطوف عبقة الشذى.

---

١ - في الأدب الحديث - دار الفكر العربي - ج١ ص٢١٧

الرثاء :

قال ابن رشيق: " ليس بين الرثاء والمديح فرق إلا أن يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت مثل كان أو عندما ، به كيت وكيت وما يشاكل هذا ليعلم أنه ميت "[١]

والرثاء يقوم على الوفاء ويتسم في معظمه بصدق الحديث لأن الشاعر لا تحركه فيه رغبة أو طمع في نوال، إنما يقوله وفاء واعترافا لشخص كانت تربطه به رابطة ما في حياته.[٢]

وقد رثى البارودي – في منفاه – العديد من الشخصيات ، وصور خلال مراثيه عظم الخطب ورزء المصيبة وكان رثاؤه رثاء صادقا ، ترفده عاطفة حارة صادقة مشبوبة ، ولعل السبب في ذلك أن جل من رثاهم تربطه بهم صلة ود وحب صادقة فهم إما أصدقاء عهد فيهم الوفاء وصدق الود ودوام الإخوة ، وإما زوجة وفية حنون تحملت معه تقلب الزمن وظلت وافية له بعد أن تنكرت له الأيام ، فتفجع كثيرا في مراثيه ، وشكا الزمن وصروفه وتقلبه بأهله وأنطقه الموقف بالحكم الرائعة يتأسى بها ويقدم العزاء لأهل الميت.

يقول د. عمر الدسوقي عن رثاء البارودي:[٣] " ولم يرثى البارودي إلا صديقا أو قريبا فلم يكن رثاؤه مفتعلا أو من شعر المناسبات وإنما كان

---

١ – العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ،دار الجيل بيروت الطبعة الرابعة ج٢ ص١٤٧

٢ – الأدب العربي في الأندلس د،عبد العزيز غيثو ٢٢٦ دار النهضة العربية بيروت ط الثانية ١٩٧٦م ص١٩٤

٣ – في الأدب الحديث دار الفكر العربي جـ١ ص٢٢٦

منبعثا عن عاطفة صادقة وقد تمثل في رثائه كل ما يخطر ببال الراثي من تفجع وشكوى من الزمن والحياة وسخط عليهما وإظهار لمحاسن المرثـــي وبعض الحكم يتأسى بها الشاعر ويعظ بها غيره ويقدم العزاء أحيانا لأهـــل الميت وإن لم يحاول الوقوف على سر الحياة الأخرى وأن يستشف ما بعد الموت كما كان يفعل شوقي . وقد يأتي البارودي ببعض المعاني القديمة في قصائد الرثاء كأن يدعو الله أن ينزل الغيث على جدث الميت وما شابه هذا من الصيغ التقليدية المعروفة ..... وهو يظهر الجزع والحزن الشديد دون مبالغة جارفة في النعوت التي يضفيها على الميت . وجزعه وحزنه يدلان على عاطفة مشبوبة وقلب وفي ، ولاسيما وقد قال معظم مراثيه وهو فـــي المنفى فزاد في أساه لوعة النوى عن الوطن ، وحرمانه التزود من الميـــت بنظرة أو حديث."

ومن أصدق مراثيه وأشدها لوعة وأكثرها حرارة مرثيتـــه لزوجتـــه عديلة يكن – بنت المشير أحمد يكن باشا – نعيت إليه وهو بالمنفى فرثاها بداليته المطولة والتى تبلغ سبع وستين بيتا . بث خلالها أشجانه والعديد من الحكم البالغة وآراؤه في الحياة والناس من حوله ونراه يستهلها بهذا النداء. فيقول:[١]

أيد المنون قدحت أي زناد	وأطرت أية شعلة بفؤادي
أوهنت عزمي وهو حملة فيلق	وحطمت عودي وهو رمح طراد
لم أدر هل خطب ألم بساحتى	فأناخ أم سهم أصاب سوادى
أقذى العيون فأسبلت بمدامع	تجرى على الخدين كالفرصاد

فقد كان وقع الخطب عليه شديدا فكأنه سهم أصاب سويداء قلبه.

---

١ – – ديوان البارودي –دار العودة –بيروت ج١ ص١٥٣ ومابعدها

ويستمر رب السيف في تصوير وقع الخطب عليه قائلا:[١]

ما كنت أحسبني أراع لحادث ... حتى منيت به فأوهن آدي

أبلتني الحسرات حتى لم يكد ... جسمي يلوح لأعين العواد

أستنجد الزفرات وهى لوافح ... وأسفه العبرات وهى بوادي

لا لوعتي تدع الفؤاد ولا يدي ... تقوى على رد الحبيب الغادي

فموت هذه الزوجة قد أوهن قواه واخترم جسمه حتى أصبح نحيلا لا يكاد يبدو لمن يعوده وهذا يدل على مدى فداحة الخطب ورزء المصيبة . وكأنه في البيت الثاني قد نظر إلى قول المتنبي[٢]:

كفى بجسمى نحولا أننى رجل ... لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وإلى قول الآخر:

والهم يخترم الرجال نحافة ... ويشيب ناصية الصبى ويهرم

وانظر إلى بيت القصيد الذي يصور خلاله حاله إثر هذه الفجيعة

لا لوعتي تدع الفؤاد ولا يدي ... تقوى على رد الحبيب الغادي

فلا حزنه الشديد يترك قلبه ولا يده تستطيع رد الحبيب المفقود.

ثم يتجه إلى خطاب الدهر ملقيا عليه باللائمة فإذا كان لم يرحم مرضه الذي خامر جسده وهو بهذا المنفى أفلا رحم أولاده ؟ فقد صرن بعد فراقها منفردات وحيدات بلا أب ولا أم . ويصور حالهن بعد فراقها فقد أصبحن في سهاد دائم ، فعيونهن قرحى وقلوبهن فزعى يبكين فراق من كانت مصدر الرحمة والإكرام لهن وليس أدل على ولههن من خدودهن

---

١ - ديوان البارودي ج١ ص ١٩٠ ،١٩١

٢ - شرح ديوان أبي الطيب المتنبي لأبي العلاء المعري تحقيق عبد المجيد دياب - دار المعارف ط الثانية ١٩٩٢م ص ١١

الندية بالدموع ، وقلوبهن المحترقة لجزعهن الشديد فيقول:[١]

يا دهر فيم فجعتني بخليلة ... كانت خلاصة عدتي وعتادي
إن كنت لم ترحم ضناى لبعدها ... أفلا رحمت من الأسى أولادي
أفردتهن فلم ينمن توجعا ... قرحى العيون رواجف الأكباد
ألقين در عقودهن وصغن من ... در الدموع قلائد الأجياد
يبكين من وله فراق حفية ... كانت لهن كثيرة الإسعاد
فخدودهن من الدموع ندية ... وقلبهن من الهموم صواد

ولاشك أن خطاب مالا يعقل يدل على شدة الوله والحيرة وكلمة " فجعتني " تنقل وقع الخطب عليه ، كما صور لنا بحسه الصادق وخياله المحلق حالة أولاده النفسية والجسدية إثر هذه الفجيعة رغم أنه لم يكن بينهن فقد ظللن يشكين الوحدة والسهاد ورمد العين واضطراب الفؤاد وحرق الوجد .

ويتجه بعد ذلك إلى خطاب زوجته و أم أولاده التي ذهبت بلا عودة فقد أودعوها الثرى إلى أن يحبي الله الموتى فيبين صعوبة الخطب عليه وهو يراها رهينة الثرى بعيدة عن منزلها فلو كان الدهر يقبل فدية لكان أول من يفديها أو كان يرهب ويخشى سطوة الشجعان لانتصر منه وفعل فعل من ضرب به المثل في القوة والفتك والبسالة إنما هي أقدار مكتوبة على العباد لا دخل للإنسان فيها . يقول:[٢]

أسليلة القمرين أي فجيعة ... حلت لفقدك بين هذا النادي
أعزز عليَ بأن أراك رهينة ... في جوف أغبر قاتم الأسداد
أو أن تبيني عن قرارة منزل ... كنت الضياء له بكل سواد

---

١ - ديوان البارودي ج١ ص١٩١ ،١٩٢

٢ - ديوان البارودي ج١ ص١٩٢ ،١٩٣

أو كان هذا الدهر يقبل فدية ... بالنفس عنك لكنت أول فادي
أو كان يرهب صولة من فاتك ... لفعلت فعل الحارث بن عباد[١]
لكنها الأقدار ليس بناجع ... فيها سوى التسليم والإخلاد
فبأى مقدرة أردُ يد الأسى ... عنى وقد ملكت عنان رشادي؟
أفأستعين الصبر وهو قساوة ؟ ... أم أصحب السلوان وهو تعادى؟

ونراه يلتمس لنفسه العذر في الجزع وشدة الوله وهو الذي طالما تغنى بالشجاعة والصبر والتجلد فيقول:[٢]

جزع الفتى سمة الوفاء وصبره ... غدر يدل به على الأحقاد
ومن البلية أن يسام أخو الأسى ... رعى التجلد وهو غير جماد

ويستمر الشاعر في وصف حاله أثر هذه الفجيعة فيخاطب زوجته ويحادثها وكأنها ماثلة أمامه تسمع كلامه وترى مكانه فيقول: [٣]

هيهات بعدك أن تقر جوانحي ... أسفا لبعدك أو يلين مهادي
ولهى عليك مصاحب لمسرتي ... والدمع فيك ملازم لوسادي
فإذا انتبهت فأنت أول ذكرتي ... وإذا أويت فأنت آخر زادي
متخشعا أمشى الضراء كأنني ... أخشى الفجاءة من صيال أعادي
مابين حزن باطن أكل الحشا ... بلهيب سورته وسقم بادي
ورد البريد بغير ما أملته ... تعس البريد وشاه وجه الحادي
فسقطت مغشيا علىَ كأنما ... نهشت صميم القلب حية وادي

---

١ - الحارث بن عباد البكري : كان سيدا وشاعرا وبطلا من أبطال العرب في الجاهلية ، وهو الذي انتصر لقومه بني بكر من بني عمهم " تغلب" يوم تحلاق اللمم في حرب البسوس

٢ - ديوان البارودي ج١ ص١٩٣ ، ١٩٤

٣ - السابق ج١ ص١٩٤، ١٩٥

ويلمه رزءا أطار نعيه ... بالقلب شعلة مارج وقاد
قد أظلمت منه العيون كأنما ... كحل البكاء جفونها بقتاد[١]
لاموا على جزعي ولما يعلموا ... أن الملامة لاترد قيادي

ونراه يلتمس ثانية لنفسه العذر في كثرة النحيب والعويل والحرقة والألم ، لفقده حمى منزله ورفيقة دربه ويرى أنَ لبيد وإن كان قد أوصى بناته بأن يرثينه عاما كاملا فهو بخيل في حكمه ويرى أن زوجته غير لبيد فهذا قد عمَر طويلا وتلك ماتت في ربيع العمر ولم تبلغ شبيبة عمرها . يقول [٢]

فلئن لبيد قضى بحول كامل ... في الحزن فهو قضاء غير جواد
لبس الزمان على اختلاف صروفه ... دولا وفل عرائك الآباد
كم بين عادى تملى عمره ... حقبا وبين حديثه الميلاد
هذا قضى وطر الحياة وتلك لم ... تبلغ شبيبة عمرها المعتاد
فعلام أتبع ما يقول؟ وحكمه ... لا يستوي لتباين الأضداد

وبعد أن بين الشاعر حالة أولاده بعد فقد مصدر الحنان والرعاية وحاله إثر فقدها ، يتجه إلى القبر بالخطاب على عادة سابقيه ، شاكيا فعل الأيام وفعل البشر ، وأنهم مصدر شقوته وعذابه ، فعلى الإنسان أن لا يغفل عما قد يباغته وهو الموت لأن كل امرئ سيلاقي ربه لا محالة . فيقول:[٣]

سر يا نسيم فبلغ القبر الذي ... بحمى الإمام تحيتي ووداى
أخبره أني بعده في معشر ... يستجلبون صلاحهم بفساد
طبعوا على حسد،فأنت تراهم ... مرضى القلوب أصحة الأجساد
ولو انهم علموا خبيئة ما طوى ... لهم الردى،لم يقدحوا بزناد

---

١ - القتاد : شجر صلب له شوك كالإبر
٢ - الديوان ص١٩٦
٣ - ديوان البارودي ج١ ص ١٩٧

كل امرئ يوما ملاق ربه والناس في الدنيا على ميعاد
وكفى بعادية الحوادث منذرا للغافلين لو اكتفوا بعوادى

وسيرا على درب سابقيه من الشعراء في أخذ العبرة والعظة من مصارع الأمم والجبابرة وهلاك الممالك نراه يقدمها لبني جنسه حتى لا يغتر حاكم بحكمه ولا جبار بسلطانه فكل إلى هلاك وزوال ويتخذ من سرد أسماء بارزة في سماء الملك والسيادة قد بادت وهلكت العبرة والعظة لتذكير الإنسان بيوم القيامة فعلى الإنسان أن يضع هذا اليوم نصب عينيه لأن الموت قد يباغته ويتخذ من ذلك سلوانا وعزاء لنفسه، فيقول :[1]

فلينظر الإنسان نظرة عاقل لمصارع الآباء والأجداد
عصف الزمان بهم فبدد شملهم في الأرض بين قمائم ونجاد
أفنى الجبابر من مقاول "حمير" وأولى الزعامة من ثمود وعاد
ورمى قضاعة فاستباح ديارها بالسخط من "سابور ذى الأجناد
وأصاب عن عرض "إياد" فأصبحت منكوسة الأعلام في سنداد
فسل المدائن فهي منجم عبرة عما رأت من حاضر أو باد
كرت عليها الحادثات فلم تدع إلا بقايا أرسم وعماد
واعكف على الهرمين واسأل عنهما بلهيب" فهو خطيب ذاك الوادي
تنبئك ألسنة الصمود بما جرى في الدهر من عدم ومن إيجاد
أمم خلت فاستعجمت أخبارها حتى غدت مجهولة الإسناد
فعلام يخشى المرء صرعة يومه؟ أوليس أن حياته لنفاد
تعس امرؤ نسى المعاد وما درى أن المنون إليه بالمرصاد

ونراه في نهاية مرثيته يطلب من الله الهداية والصبر لفراق هذه الزوجة الوفية والمغفرة لها ، ويتجه إليها ثانية بالخطاب مبيناً أنه لولا توقع

---

١ - السابق ١٩٨ وما بعدها

لقياها يوم القيامة لقضى نحبه ومات حسرة وكمدا يقول:[١]

فاستهد يا((محمود))ربك والتمس ... منه المعونة فهو نعم الهادي
واسأله مغفرةً لمن حل الثرى ... بالأمس فهو مجيب كل منادى
هي مهجة و دعت يوم زيالها ... نفسي،وعشت بحسرة وبعاد
تالله ما جفت دموعي بعد ما ... ذهب الردى بك يا ابنة الأمجاد
لا تحسبيني ملت عنك مع الهوى ... هيهات ماترك الوفاء بعادى
قد كدت أقضى حسرة لو لم أكن ... متوقعا لقياك يوم معادى
فعليك من قلبي التحية كلما ... ناحت مطوقة على الأعواد

والبيتين الثالث و الرابع يدلان على أن هذه الأبيات قيلت بعد وقت من وروده نعيها.

وكانت فجيعته الثانية بموت ابنته وهو بالمنفى فحزن حزناً شديداً جمدت له عيناه وقال عند وروده نعيها.[٢]

فزعت إلى الدموع فلم تجبني ... وفقد الدمع عند الحزن داء
وما قصرت في جزع ولكن ... إذا غلب الأسى ذهب البكاء

فقد عجز عن التعبير عن الحزن بالبكاء ولاغرو فشدة الموجدة تجعل الدمع عزيزا غاليا. وقديما استدعت الخنساء دموعها حزنا على أخيها صخر فقالت:[٣]

أعينيَ جودا ولا تجمدا ... ألا تبكيان لصخر الندى؟

وقوله: "إذا غلب الأسى ذهب البكاء " يصح جريانه مجرى المثل.

---

١ - ديوان البارودي ج١ ص٢٠١ ، ٢٠٢

٢ - ديوان البارودي ج١ ص٢٩

٣ - ديوان الخنساء ط دار صادر بيروت ص٣٠

ومات ابنه علي وهو بالمنفى، فحزن عليه حزنا شديدا أيضا وقد عبر في رثائه لابنه عن عدة جوانب لعل أهمها وصف وقع الخطب على نفسه وجسده ففقده أوهن قواه وأذهب بصره وأسهده وأدمع عينه فيقول:[١]

واكمدي يا على بعدك لو ... كانت تبل العليل " واكبدي "
فقدك سل العظام مني ور ... د الصبر وفت في عضدي
كم ليلة فيك لا صباح لها ... سهرتها باكيا بلا مدد
دمع وسهد وأي ناظرة ... تبقي علي المدمعين والسهد

ونلاحظ أن البيت الأول - يندب الشاعر فيه ولده - ففقده قد أصابه بالكمد و الحسرة ٠

والبيت الثاني يحتوى على كناية جيدة ففقده قد أفزعه وأصابه بالهلع والحسرة وكأن عظامه قد انسلت عن جسمه فلا يستطيع قياماً ٠ ويصور وقع هذا الخطب عليه في قصيدة أخرى في سبعة أبيات يقول منها:[٢]

بكيت عليا إذ مضى لسبيله ... بعين تكاد الروح في دمعها تجري
وإني لأدري أن حزني لا يفي ... برزئي ولكن لا سبيل إلى الصبر

فلشدة موجدته ورزء مصيبته تكاد تخرج روحه مع دمع عينه وأن هذا الحزن لا يصور عظم مصيبته ولكن ليس بمقدوره أن يصبر على هذا البلاء. ولعله نظر في هذين البيتين إلى قول ابن الرومي عند فقد ولده الأوسط يخاطب عينيه[٣]:

بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدي ... فجودا فقد أودى نظيركما عندي

---

١ - ديوان البارودي ج١ ص٢٠٢ وما بعدها

٢ - ديوان البارودي جـ٢ صـ ٩٦ وما بعدها

٣ -ديوان ابن الرومي تحقيق د٠حسين نصار-الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٧٦م ج٢ ص٦٢٤

ونراه في الجانب الثاني من مرثيته لابنه يتعجب من حدثان الزمـــان ومصائب الدهر متفجعا يسأل ولده الذي واراه الثرى سؤال الوله المتحيـــر قائلا :[١]

كيف طوتك المنون يا ولدى ؟ وكيف أودعتك الثرى بيدي ؟
ما كنت أدرى إذ كنت أخشى علي ك أن الحمام بالرصد
فاجأني الدهر فيك من حيث لا أع لم ختلا والدهر كالأسد
فليبك قلبي عليك فالعين لا تب لغ بالدمع رتبة الخلد
إن يكن أخنى الردى عليك فقد أخنى أليم الضنى على جسدي

فليبكك قلبي أمد الدهر مادام الدمع قد ينقطع. وإن كان المـــوت قـــد أهلكك وأرداك ففقدك أوهن جسدي وأبلاه. يقول:[٢]

وكيف أذود القلب عن حسراته وأهون ما ألقاه يصدع في الصخر

وفي الجانب الثالث لرثائه ولده- نراه يركن إلى الله تعالي في مصابه و يستسلم لأمره مبدياً الرضا بقضائه مبيناً أن الحزن في المصائب و الفرح في السرور دليل على معاني إنســـانية جليلة،فالـــذي لا يحـــزن ويأســـى للمصائب و يفرح لما يستوجب السرور و الفرح لا يرجي منـــه نفـــع و لا ضر ولعله هنا يطلب من السامع أن يلتمس له العذر فيما أبداه من أســـى و حزن لفقده فلذة كبده إذ هو في النهاية إنسان. يقول:[٣]

يلومونني أني تجاوزت في البكا وهل لمرئ لم يبك في الحزن من هدر
إذا المرء لم يفرح ويحزن لنعمة وبؤس فلا يرجي لنفع ولا ضر
وما كنت لولا قسمة الله في الورى لأصبر لكنا إلي غاية نسري

---

١ - السابق ج١ ص ٢٠٢ :٢٠٤

٢ - ديوان البارودي ج٢ ص ٩٦

٣ - ديوان البارودي جـــ٢ ص٩٦ وما بعدها

لقد خفت البلوى – وإن هي أشرفت علي النفس ما أرجوه من موعد الحشر

ولعله في بيته الأول نظر إلى قول المعتمد بن عباد في رثاء ولديه:[١]

يقولون صبرا لا سبيل إلى الصبر سأبكى وأبكى ما تطاول من عمري

وفي الجانب الرابع من رثائه يردفنا البارودي بالعديد من الحكم و الأشعار والتي يصح جريانها مجري المثل و التي لها دلالتها الواضحة علي سعة إطلاع وواسع

خبراته ، وقد أبدي البارودي رغم اجتواء قلبه و حرق وجده تجلده و تصبره ، فنراه يقول[٢]:

فاجأني الدهر فيك من حيث أع لم ختلا والدهر كالأسد
لولا اتقاء الحياء لاعتضدت بالحل م هياماً يحيق بالجسد
لكن أبت نفسي الكريمة أن أثلم حد العزاء بالكمد
فليبك قلبي عليك فالعين لا تبلغ بالدمع رتبة الخلد

ويقول :[٣]

لم أصطبر بعدك من سلوة لكن تصبرت على جمر
وشيمة العاقل في رزئه أن يسبق السلوة بالصبر

ويقول في ختام مرثيته لولده [٤]

عليك مني السلام توديع لا قال ولكن توديع مضطهد

---

١ - ديوان المعتمد بن عباد – تحقيق حامد عبد المجيد – دار الكتب المصرية ط الثانية ١٩٩٧م ص٢٠٥

٢- السابق ج١ ص ٢٠٣ :٢٠٤

٣ ديوان البارودي جـ٢ ص٩٦

٤ - ديوان البارودي دار العودة بيروت ص١٦٠

ولا شك أن جسم الخطب ورزء المصيبة هما المفجر لينبـوع هـذه الحكمة في هذه المواطن.

ويقول[1] في رثائه للشيخ حسين المرصفي وعبد الله فكرى متحسرا متوجعا لما آل إليه حاله من الشيب والوجد وشدة الضنى ، ومبينا أنه ممـا زاد في ضناه فجيعته بموت والديه وزوجه ، ثم أقبلت الحوادث تترى عليه فتصيبه في أصدقائه:

يا نديمي في سرنديب كفا ... عن ملامي وخلياني لما بي
كيف لا أندب الشباب؟ وقد أص ... بحت كهلا في محنة واغتراب
أخلق الشيب جدتي وكساني ... خلعة منه رثة الجلباب
ولوى شعر حاجبي على عي ... نى حتى أطل كالهداب
لم تدع صولة الحوادث منى ... غير أشلاء همة في ثياب
فجعتني بوالدي وأهلي ... ثم أنحت تكر في أترابي
كل يوم يزول عنى حبيب ... يالقلبي من فرقة الأحباب
أين مني حسين؟بل أين عبد الل ... ه ؟ رب الكمال والآداب
لم أجد فيهما بديلا لنفسي ... غير حزني عليهما واكتئابي
قد لعمري عرفت دهري فأنكر ... ت أمورا ما كن لي في حساب
تجنبت صحبة الناس حتى ... كان عونا على التقاة اجتنابي

فموت أنداده وأصحابه يزيد في وجده وشدة حزنه فقد كانوا لـه السـلوى والعزاء في هذه المحنة ، يشكو إليهم بثه ويفضي إليهم بجوى الغربـة ، ويجـد عندهم التسلي والعزاء ورتق ما يمكن رتقه مما يجب أن يقوم به البارودي لـو كان في موطنه وبين ذويه ، أما وقد مات الواحد منهم تلو الآخر فحق له التوجع

---

١ - ديوان البارودي تحقيق على الجارم ومحمد شفيق درويش دار العودة بيـروت ١٩٩٢ ج١ ص٦٦ وما بعدها

والشكوى والأسف ، وكان من مظاهر أسفه لفقدهم حزنه واكتئابه .وانظر إلى بيته الذي صور خلاله حاله دون أدنى مواربة .

لم تدع صولة الحوادث مني غير أشلاء هشة في ثياب

فالحوادث التي تترى عليه قد أنهكت قواه وأضعفت جسده فلم يبق من همته وقوته غير بقايا ضئيلة ، وكلمة فجعتني في البيت الخامس تجسد جسم الخطب وعظم النوازل والدواهي فالفجيعة لا تكون إلا عندما يفقد الإنسان شيئا عزيزا عليه.

ومن الملاحظ هنا أن البارودي لم يتطرق لذكر بعض ما يتحلى به صاحباه من فضائل إلا لماما ، ولعل مرد ذلك إلى أن المغزى هنا ليس التأبين بل الغاية تصوير حاله إثر تلاحق المحن عليه ، وتوالى حالات الفقد للأوفياء من ذويه وأصدقائه الذين كانوا عونا له على عاديات الأيام وفواجع الدهر، بدليل أنه بعد هذه الأبيات يشكو الدهر وأناسه، يشكو حاسديه ومغتابيه، فيقول:[١]

لا أبالي بما يقال وإن كن ت مليئا برد كل جواب
قد كفاني بعدى عن الناس أني في أمان من غيبة المغتاب
فليقل حاسدي عليَ كما شاء فسمعي عن الخنا في احتجاب

فقد صار البارودي إثر هذه الحوادث المتلاحقة والفواجع المتعددة - لا يبالي بما يقال عليه من أكاذيب وغيبة المغتاب -فهل بعد التغافل - من رجل ملأ الدنيا فروسية وشجاعة وانتصارات- من دليل على تحطم نفسه ووصول حالته المزاجية إلى حالة سوداوية لا يبالي بما يقال عليه؟ .

والبارودي كان صادقا مع نفسه أيضا حين رثى صديقيه في ثنايا قصيدة

---

١ - ديوان البارودي ج١ ص٥٧ ط دار الكتب

بدأها بتصوير شوقه لوطنه وختمها بنفض يده من الناس واحتمال آذاهم .

ونراه في مرثيته لصديقه أحمد فارس الشدياق يستهلها بالحكمة والزهد في الدنيا ، ويظهر خلالها تفجعه وحزنه لفقده وفقد أصدقائه من قبل، ويؤبنه على عادة من سبقه من الشعراء . فيقول في مستهل مرثيته له [1]

متى يشتفى؟ هذا الفؤاد المفجع ... وفى كل يوم راحل ليس يرجع
نميل من الدنيا إلى ظل مزنة ... لها بارق فيه المنية تلمع
وكيف يطيب العيش والمرء قائم ... على حذر من هول ما يتوقع
بنا كل يوم للحوادث وقعة ... تسيل لها منا نفوس وأدمع
فأجسادنا في مطرح الأرض هُمد ... وأرواحنا في مسرح الجو رتع
ومن عجب أنا نساء ونرتضى ... وندرك أسباب الفناء ونطمع
ولو علم الإنسان عقبان أمره ... لهان عليه ما يسر ويفجع
تسير بنا الأيام والموت موعد ... وتدفعنا الأرحام والأرض تبلع
عفاء على الدنيا فما لعداتها ... وفاء ولا في عيشا متمتع

فموت أحبائه وأصدقائه من حوله فجَر في نفسه العديد من المعاني والخواطر حول الموت ومصابه ، فقد أصبح - لتوالي حالات الفقد - مقرح الفؤاد دامي الصدر وأصبحت الدنيا في نظره كأنها سحابة بارقة ، ففي حين تجد الناس قد ركنوا إلى ظلها الزائل تراها تباغتهم ببرقها فكان فيها هلاكهم ودمارهم ، وإذا كانت الحياة على هذه الحالة فكيف يطيب العيش للمرء فيها فحوادثها متلاحقة .

وتعلو الأبيات مسحة اليأس من الحياة ، ونفض اليد من خير قد تأتى به الأيام ولا عجب فقد ذاق الشاعر مرارات عدة ، أبعد عن وطنه وصودرت

---

١ - ديوان البارودي ج٢ ص٢٣٢ ، ٢٣٣

ممتلكاته وفقد أحباءه ، ولا عجب أيضا أن نجده يحتقر الدنيا ويدعو عليها بالعفاء فهي كاذبة خادعة غادرة ، ويرى أن المرثي أحدث في قلوب الناس حزنا وانزعاجا ، تقض له مضاجعهم وتسهر له عيونهم وليس أدل على ما أحدثه من أنه أحزن الشاعر حزنا شديدا رغم صلابته وتجلده للخطوب والنوازل وقد أثر فقده على الناس جميعا ، فقد أصبحوا بعده كمن فقد الماء. يقول:[١]

أبعد سمير الفضل "أحمد فارس" تقر جنوب أو يلائم مضجع ؟
كفى حزنا أن النوى صدعت به فؤادا من الحدثان لايتصدع
وما كنت مجزاعا ولكن ذا الأسى إذا لم يساعده التصبر يجزع
وأي فؤاد لم يبت لمصابه على لوعة أو مقلة ليس تدمع
إذا لم يكن للدمع في الخد مسرب روى- فما للحزن في القلب موضع

ونراه في البيت الأخير يلتمس لنفسه العذر لشدة وجده لفقد صديقه فيبين أن البكاء على الميت وانسكاب الدمع عليه دليل على حزن الفؤاد واجتوائه. وقد أنطقه الموقف بالحكمة البليغة المتمثلة في هذا البيت أيضا.

ويشيد الشاعر بسعة ثقافته وغزارة علمه وآثاره الأدبية التي ستظل ينابيع للمعرفة تستقي منها العقول العطشى. ويدعو أخيرا لقبر الميت بالسقيا على عادة العرب في الرثاء. يقول:[٢]

مضى وورثنا علوما غزيرة تظل بها هيم الخواطر تشرع
إذا تليت آياتها في مقامة تنافس قلب في هواها ومسمع
سقى جدثا في أرض"لبنان" عارض من المزن فياض الجداول مترع

ويقول[٣] معزيا ومؤبنا مخاطبا ابنه سليم ، ومبينا أن ما أحرزه من

---

١ - ديوان البارودي ج٢ ص٢٣٤ ، ٢٣٥
٢ - ديوان البارودي ج٢ ص ٢٣٦
٣ - ديوان البارودي ج١ ص ٢٣٧

خلال كريمة كان عزاء له عن فقد صديقه ، ويشيد بعدة شمائل وخصـــال كريمة ورثها ابن المتوفي عن أبيه فهو حليم رزين وقور.

فإن يكن الشدياق خلى مكانه ... فإن ابنه عن حوزة المجد يدفع
وما مات من أبقى على الدهر فاضلا ... يؤلف أشتات المعالي ويجمع
رزين حصاة الحلم لا يستخفه ... إلى اللهو طبع فهو بالجد مولع
تلوح عليه من أبيه شمائل ... تدل على طيب الخلال وتنزع
فصبرا جميلا "يا سليم" فإنما ... يسيغ الفتى بالصبر ما يتجرع
إذا المرء لم يصبر على ما أصابه ... فماذا تراه في المقدر يصنع ؟
ومثلك من دار الأمور بعقله ... وأدرك منها ما يضر وينفع
فلا تعطين الحزن قلبك واستعن ... عليه بصبر فهو في الحزن أنجع
وهاك على بعد المزار قريبة ... إلى النفس يدعوها الوفاء فتتبع
رعيت بها حق الوداد على النوى ... وللحق في حكم البصيرة مقطع

ويرثي صديقه عبد الله باشا فكري [١] ويذكر بعضا من سماته وشيمه الجليلة ، فقد كان بهيا جميل المحيا حسن الطلعة ، أقام زمنا ثم رحل إلـــى العالم العلوي عالم الخلد والبقاء ، عالم نوراني خالص ، وهـــو إن غـــاب بجسده فهو في عالم البقاء والخلد باق ببهائه وحسنه ، ولولا اعتقاد الشاعر بأنه في نعيم وفضل من الله لاجتوى قلبه كمدا وحزنا عليه. يقول :[٢]

---

١ - عبد الله فكري : كان كاتبا شاعرا من حاشية سعيد باشا ثم إسماعيل باشا تقلب في جملة من المناصب آخرها نظارة المعارف ســـ ١٢٩٩هـــ اتهم زمن الثورة العرابية وقـــبض عليه ثم ظهرت براءته فأطلق سراحه توفي ســـ ١٣٠٧ هـــــ - وفـــي بعـــض أوراق البارودي ما يدل على أن هذه القصيدة قيلت أولا في رثاء السيد جمال الدين الحسيني ثم حولت إلى رثاء عبد الله فكري ديوان البارودي ص ٣٠

٢ - ديوان البارودي ج١ ص ٣٠

ألا بأبي من كان نورا مجسدا ... يفيض علينا بالنعيم رواؤه [١]

ثوى برهة في الأرض حتى إذا قضى ... لبانته منها دعته سماؤه [٢]

وما كان إلا كوكبا حل بالثرى ... لوقت فلما تم شال ضياؤه [٣]

نضا عنه أثواب الفناء ورفرفت ... إلى الفلك الأعلى به مضواؤه [٤]

فأصبح في لج من النور سابحا ... سواحله مجهولة وفضاؤه

تجرد من غمد الحوادث ناصعا ... وما السيف إلا أثره ومضاؤه

فإن يك ولى فهو باق بأفقه ... كنجم يشوق الناظرين بهاؤه

ولولا اعتقادي أنه في حظيرة ... من القدس لاستولى على الجفن ماؤه[٥]

عليك سلام من فؤاد نزا به ... إليك نزاع أعجز الطب داؤه [٦]

ومن الملاحظ أن رثاء البارودي لأهله وزوجه يختلف عن رثائه لأصدقائه ورفاقه ، والشاعر كان صادقا مع نفسه وفنه في كل أحواله ، فنجده حين تعرض لرثاء زوجته بدأ مرثيته بخطاب الميت ، وخطاب مالا يعقل يدل على الوله والتحير وشدة التخبط ، ثم إنه باشر موضوعه دون مقدمة أو تمهيد ، فالخطب ما أجسمه والحدث ما أفجعه والألم ما أوجعه ، فالفقيدة تسكن سويداء قلبه وماتت على بعد منه ومنأى ، ماتت وتركت فلذات كبده بنات هن من الضعاف ، أصبحن بلا أب ولا أم يشكين الوحدة والفقد والضعف فحق له التوجع وحق له أن يندبها بدموع غزار وأن تسعفه ربة الشعر بالأبيات التي

---

١ - يقال ماء رواء : أي كثير للوارد فيه ري - والرواء بالضم حسن المنظر

٢ - اللبانة : الحاجة تدعو إليها الهمة لا الفاقة

٣ - شال ضياؤه : ارتفع عنا نوره وغاب

٤ - المضواء : التقدم

٥ - القدس : الطهر ومنه قيل للجنة حظيرة القدس

٦ - نزا : طمح ووثب. والنزاع : الاشتياق

تصور حرق الوجد وجوى القلب فتراه يبدأ مرثيته كما سبق بقوله :

أيد المنون قدحت أي زناد وأطرت أية شعلة بفؤادي

أوهنت عزمي وهو حملة فيلق وحطمت عودي وهو رمح طراد

أما في رثاء غير أهله فنراه يكفكف دمعه ، ويميل إلى التعقل والتصبر فمثلا في مرثيته لصديقه أحمد فارس الشدياق يستهلها بالحكمة وتصوير نظرته في الحياة والأحياء من حوله على حد قوله:

متى يشتفى هذا الفؤاد المفجع وفى كل يوم راحل ليس يرجع

نميل من الدنيا إلى ظل مزنة لها بارق فيه المنية تلمع

فالبارودي في رثائه لأصدقائه رزين حكيم خبر الحياة وعلم أن لامصير للإنسان إلا الموت أما في رثاء زوجته وبنيه فنراه ولها حزينا طربا ، يكاد يطير عقله ، ولا غرو فالعاطفة هنا أقوى والداعي أشد والخطب أوجع ، أما الأصدقاء فتجمعهم بالمرثي

رحم العلم والثقافة ، واتفاق في الأهواء والمشاعر وهذه المكارم لا تربو إلى مشاعر الأبوة والزوجية وليس أدل على ذلك من قوله في نهاية مرثيته لأحمد فارس الشدياق :

وهاك على بعد المزار قريبة إلى النفس يدعوها الوفاء فتتبع

رعيت بها حق الوداد على النوى وللحق في حكم البصيرة مقطع

أضف إلى ذلك أننا نراه في رثائه لزوجته وولده مسكاب الدمع رمد العينين ، لا يصغي لدعوة تصبر بل إنه يرى أن البكاء دليل على حزن القلب ، أما في رثائه لأصدقائه وغير ذوى رحمه نراه يدعو إلى التصبر ، ويرى أن الصبر نافع في حالات الحزن والكآبة، يقول في رثائه لولده :

يلومونني أني تجاوزت في البكاء وهل لمرئ لم يبك في الحزن من هدر

وفي رثائه لزوجته يقول:

أفأستعين الصبر وهو قساوة ؟ أم أصحب السلوان وهو تعادى؟

أما فى رثائه للشدياق فتراه يقول:

فلا تعطين الحزن قلبك واستعن عليه بصبر فهو في الحزن أنجع

" فرثاؤه لزوجته وأولاده يدخل في باب الندب الذي هو النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية وتذيب العيون الجامدة إذ يولول النائحون والباكون ويصخون ويعولون مسرفين في النحيب والنشيج وسكب الدموع "[١]

كما نلاحظ أن البارودي في رثائه لأصدقائه يسبقه بندب شبابه وتصوير حاله كما في رثائه لعبد الله فكري ، أو بالحكمة وتصوير زهده في الدنيا كما في مرثيته لأحمد فارس الشدياق ، أما في رثائه لأهله وأولاده فنراه يباشر موضوعه ويصور فجيعته.

وأخيرا فيقول [٢] د. شوقي ضيف عن مراثيه في المنفى في معرض حديثه عن الشعر السياسي والوطني عنده ".....وقد ظل يراوده الأمل في منفاه أن يثأر الشعب من توفيق الظالم غير أن اليأس من ذلك أخذ يلم بنفسه وتوالت الأنباء تنعي إليه بعض أصدقائه بل تنعي إليه زوجته الشابة الجميلة فأمسك بقيثارته يرثي وهو يبكي أحر البكاء ولعله من أجل ذلك كانت مراثيه التي نظمها في المنفى تمتاز بعمق العاطفة ودرتها الفريدة مرثيته لزوجه وهي تعد من غرر مراثيه" .

---

١ - الرثاء - شوقى ضيف سلسلة فنون الأدب العربى دار المعارف ط٣ ص١٢

٢ - البارودي رائد الشعر الحديث دار المعارف ط الخامسة ص ١٢١ ، ١٢٢

الزهد:

يقصد بأدب الزهد : التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة.

وينص الأستاذ عمر الدسوقي على الدافع وراء زهد البارودي قائلا[١]" ولعل قوله في الزهد يرجع لتلك الحالات النفسية التي غلبه فيها اليأس على أمره وهو وحيد شريد يعاني غصص الفراق والنفي وإلا فهذه النفس الطموح التي خاطرت وغامرت وتطلعت إلى الملك وتلذذت ونعمت بالحياة كانت بعيدة عن الزهد في الحياة ولعلها لم تزهد إلا مرغمة وعلى كل فما قاله في الزهد مما يدل على أنه أثر لنوبات كانت تعتريه فيتشاءم من الدنيا ويتذكر الموت .

ويؤكد د .شوقي ضيف على العامل نفسه " عامل النفي" وأنه وراء زهد البارودي قائلا[٢] " .....ونلاحظ منذ إقامته بكندي تحولا يحدث في نفسه،إذ أخذ يتجه إلى ربه يريد أن يلوذ بكنفه ،فقد تكاثرت عليه المحن والخطوب ،وتكسرت النصال تلو النصال مما جعله يزهد في متاع الدنيا .....ومنذ هذا التاريخ تكثر أشعاره في الزهد ويتوجه إلى الله تعالى داعيا متبتلا ".

ومن الأفكار التي ترددت في شعره الزهدي كثيرا في منفاه. حقيقة الدنيا فأظهر التشاؤم منها والزهد فيها بل والتزهيد في ملذاتها فصور حقيقتها وأنها زائفة غرور زائلة،تغري الإنسان بكثير من زخارفها،وأنها سريعة التقلب والتحول إذا أحسنت يوما أساءت ضحى غد لذا فحري

---

١ - في الأدب الحديث ط. دار الفكر العربي جـ١ص ٢٣١

٢ - البارودي رائد الشعر الحديث ط. دار المعارف ص ٩٢

بالعاقل أن يكون يقظا فطنا مالكا زمام نفسه ،إذ أن هناك حياة أخرى هي الحياة الحقيقية ينبغي العمل لها فنراه يصورها بصورة منفّرة حتى لا يركن إليها الإنسان ، فهي تربي الفتى كما يربي أحدنا فلوه ، تتركه يرتع في نعيمها الزائل حتى إذا صار قويا يافعا ،دهنه وأصابته بلأوائها وأخذت بثأرها منه ، ومن نظر إليها نظرة العاقل الواعي درى أنها تقامر بين العباد . يقول من قصيدته " طيف سميرة " (١)

فإن تكن الأيام فرقن بيننا ... فكل امرئ يوما إلى الله صائر
هي الدار ما الأنفاس إلا نهائب ... لديها وما الأجسام إلا عقائر(٢)
إذا أحسنت يوما أساءت ضحى غد ... فإحسانها سيف على الناس جائر(٣)
ترب الفتى حتى إذا تم أمره ... دهته كما رب البهيمة جازر
لها ترة في كل حي ومالها ... على طول ما تجني على الخلق واتر
كثيرة ألوان الوداد ملية ... بأن يتوقاها القرين المعاشر(٤)
فمن نظر الدنيا بحكمة ناقد ... درى أنها بين الأنام تقامر (٥)

ويستهل مرثيته لصديقه أحمد فارس الشدياق بأبيات ملؤها اليأس من الدنيا والزهد فيها ولم لا والإنسان يعيش فيها على حذر دائم من هول ما يتوقع وكفى بالإنسان زهدا فيها أن يعلم أن الموت موعده فعفاء عليها إذن، يقول(٦):

متى يشتفي هذا الفؤاد المفجع ... وفي كل يوم راحل ليس يرجع

---

١ - ديوان البارودي جـ٢ صـ٧٩ وما بعدها

٢ - نهائب:جمع نهيبة بمعنى غنائم، والأنفاس: جمع نفس وهو مظهر الحياة

٣ - ترب : بمعنى التربية

٤ - ملية: جديرة والمعنى أنها خداعة كثيرة الزخارف أما حقيقتها فحرية أن يتوقاها الإنسان

٥ - تقامر :تخادع

٦ - ديوان البارودي جـ٢ صـ٢٣٣

وكيف يطيب العيش والمرء قائم ... على حذر من هول ما يتوقع
فأجسادنا في مطرح الأرض همد ... وأرواحنا في مطرح الأرض رتع
ولو علم الإنسان عقبان أمره ... لهان عليه ما يسر ويفجع
تسير بنا الأيام والموت موعد ... وتدفعنا الأرحام والأرض تبلع
عفاء على الدنيا فما لعداتها ... وفاء،ولا في عيشها متمتع

فلأن الحوادث تترى والمصائب تتوالى على الشاعر من نفي واغتراب وموت لبعض أصدقائه وأصفيائه وأحبائه، سيطر عليه شعور بحقارة الدنيا واليأس منها ، لذا يدعو عليها بالفناء والدروس.

وينكر على دهره ودنياه وبني جنسه بعد أن تكشفت له الحقائق أمورا كثيرة حتى ليؤثر اجتناب الناس على مجالستهم بل وأصبح وهو اللّسن الفطن لا يبالي بما يقال عنه. يقول:[1]

قد لعمري عرفت دهري فأنكر ... ت أمورا ما كن في حسابي
تجنبت صحبة الناس حتى ... كان عونا علي التقاة اجتناب
لا أبالي بما يقال وإن كن ... ت مليئا برد كل جواب
قد كفاني بعدي عن الناس أني ... في أمان من غيبة المغتاب
فليقل حاسدي علي كما شا ... ء فسمعي عن الخنا في احتجاب
ليس يخفى علي شئ ولكن ... أتغابى ،والحزم إلف التغابي
وكفى بالمشيب وهو أخو الحز ... م دليلا إلى طريق الصواب
إنما المرء صورة سوف تبلى ... وانتهاء العمران بدء الخراب

والأبيات تكشف عما كان يعتري الشاعر من نوبات قاتمة من اليأس والزهد في الدنيا جعلته لا يبالي بما يقال عنه.

---

١ - ديوان البارودي ط دار العودة بيروت ص ٦٨،٦٩

ويقول مبديا استكانته لفعل الدهر وأسهمه المريشة [١]

كل امرئ غرض للدهر يرشقه ... بأسهم لاتقي أمثالها الجنن
فليعبث الدهر أو تسكن نوافره ... فلست منه على ما فات أحتزن

وإنه ليبلغ به اليأس من الدنيا كل مبلغ حتى إنه ليتمنى زوالها فتنقضي حاجات الناس ومآربهم التي كانت سببا في التباغض والتحاسد ، ويرى أن نفوس الناس جميعا نفوس خبيثة شريرة ، فينبغي على الإنسان أن يستعيذ بالخالق منها. يقول:[٢]

متى ينقضي عمر الحياة ،فتنقضي ... مآرب كانت علة للمظالم
تساوت نفوس الخلق في الشر فاستعذ ... برب البرايا من جهول وعالم
تأمل رويا يا ابن ودي هل ترى ... على صفحات الأرض غير معالم
يظن عليل القوم في الطب برأه ... ولم يدر أن الطب ليس بسالم
فطر للسها أو فاتخذ لك سلما ... لترقى إلى أبراجه بالسلالم
وكيف تنال النفس في الدهر عيشة ... تلذ بها،والدهر غير مسالم

ونراه في موضع آخر يظهر زهده في الدنيا وعدم التعلق بها فيقول:[٣]

فاليوم لارسني طوع القياد ولا ... قلبي إلى زهرة الدنيا بميال
لم يبق لي أرب في الدهر أطلبه ... إلا صحابة حر صادق الخال
وأين أدرك ما أبغيه من وطر ... والصدق في القول أعيا كل محتال

ويشير إلى زهده الدهر الذي خبره ومرسه وتقلب بين حاليه من يسر ومعسرة ، ويبين أنه استوى لديه الحالين ، ولا ينسى رغم ضائقته أن يفخر

---

١ - ديوان البارودي جـ٤ صـــــ٣٨
٢ - ديوان البارودي ج٣ ص٢٦١ وما بعدها
٣ - ديوان البارودي ج٣ ص١٠٣

بعفة نفسه وترفعه عن الدنايا . يقول:[١]

بلوت دهري فما أحمدت سيرته ... في سابق من لياليه ولا تالي
حلبت شطريه من يسر ومعسرة ... وذقت طعميه من خصب وإمحال
فما أسفت لبؤس بعد مقدرة ... ولا فرحت بوفر بعد إقلال
عفافة نزهت نفسي فما علقت ... بلوثة من غبار الذم أذيالي

ويصبر نفسه ويتأسى لما صار إليه حاله ببيان حقيقة الدنيا وأنها ذات طرق شتى منها السهل والحزن فيقول[٢]:

وما المرء في دنياه إلا كسالك ... مناهج لا تخلو من السهل والحزن
فإن تكن الدنيا تولت بخيرها ... فأهون بدنيا لا تدوم على فن

ويقول:[٣] في موضع آخر مسفرا عما في نفسه من خواطر حول الدنيا ، وأن جديدها إلى بلى ، والعيش فيها مجرد خطرة سرعان ما تزول ، فهذه طبيعتها ، ويتوجه بالخطاب إلى السامع قائلا: وإن كنت في شك من ذلك فسل عمن بادوا قبلنا، وإن كان الأمر كذلك فعلى المرء أن يتزود بالتقوى والعمل الصالح ليوم كثيرة أهواله ويبين أن الخير كل الخير في القناعة والرضا بما قسمه الله للإنسان.

منحتك ألقاب العلا فادعني باسمي ... فما تخفض الألقاب حرا ولا تسمى
إذا كان عقبان الجديد إلى بلى ... فلا فرق ما بين الحديث ولا الرسم
تأمل إلى الدنيا بعين بصيرة ... لعلك ترضى بالقليل من القسم
فما العيش إلا خطرة عرضية ... تزول كما زال الحثيث من النسم
وهل نحن إلا مثل من كان قبلنا ... فسل عن جديس "أين ولت "وعن طسم

---

١ - السابق ج٣ ص١٠٠

٢ - ديوان البارودي جـ٤ صـ١٠

٣ - ديوان البارودي ج٣ ص ٤٤٩ وما بعدها

تزود من الدنيا بما فيه بلغة ... فسوف تعاني الجدب يا راعي الوسم
لعمري لنعم المرء من بات راضيا ... بما خصه من فيضه سابق الرسم
تفلسف قوم في المقال، وما دروا ... جريرة ما ألقوا على الدهر من وسم
ولو راجعوا هذي النفوس لعالجوا ... بترك الخطايا معضل الداء بالحسم
فدع هذه الدنيا وإن هي أقبلت ... عليك بإيماض البشاشة والبسم
فلو جرب الإنسان أخلاق دهره ... لأمسك باليأس المريح عن العسم

ويذكر البارودي نفسه بالمصير المحتوم " الموت " متوجها إلى نفسه بالخطاب زاجرا ناهيا عن الخفة والسفه فلات حين خفة وسفه فقد جاوز الخمسين واقترب من ورود حوض المنية يقول:[١]

إلام يهفو بحلمك الطرب ... أبعد خمسين في الصبا أرب
هيهات ولي الشباب واقتربت ... ساعة ورد دنا بها القرب
فليس دون الحمام مبتعد ... وليس نحو الحياة مقترب
كل امرئ سائر لمنزله ... ليس له عن فنائها هرب

ويحاول البارودي حمل النفس على العمل للآخرة والإقلاع عن متاع الدنيا الزائل من خلال وصف القبر ووحشته ،والحساب ورهبته [٢]

وساكن بين جيرة قذف ... لا نسب بينهم ولا قرب
في قفرة للصلال مزدحف ... فيها وللضاريات مضطرب
وشاهد موقفا يدان به ... فالويل للظالمين والحرب

وبأسلوب المتوعد يخاطب من ظلموه ، مذكرا بيوم كثيرة أهواله يوم تبلى السرائر ويعلو صوت الحق والحق ناصر يقول:[٣]

---

١ - ديوان البارودي جـ١ ص٨٤ وما بعدها
٢ - ديوان البارودي ج١ ص ٨٥
٣ - ديوان البارودي جـ٢ ص ٨٧ وما بعدها

فقد حاطني في ظلمة الحبس بعدما ... ترامت بأفلاذ القلوب الحناجر
فمهلا بني الدنيا علينا فإننا ... إلى غاية تنفت فيها المرائر
تطول بها الأنفاس بهرا وتلتوي ... على فلكة الساقين فيها المآزر
هنالك يعلو الحق والحق واضح ... ويسفل كعب الزور والزور عاثر
وعما قليل ينتهي الأمر كله ... فما أول إلا ويتلوه آخر

ويبين أن سهم الموت رائش لا محالة وأنه لا منجى منه لمخلوق يستوي في ذلك القوي والضعيف ويتخذ من هلاك الجبابرة وفناء الممالك عظة يسوقها لبني جنسه حتى لا يغتر سلطان بسلطانه ، فعلى الإنسان أن يحرص على فعل البر ،و تحصيل كل ما ينفعه في أخراه فبفعل الخير تفرج الكرب. يقول :[1]

فاربأ يفاعا أو اتخذ سربا ... إن كان يغني اليفاع والسرب
لا الباز ينجو من الحمام ولا ... يخلص منه الحمام والخرب
مسلط في الورى فلا عجم ... يبقي على فتكه ولا عرب
فكم قصور خلت وكم أمم ... بادت فغصت بجمعها الترب
فمنزل عامر بقاطنة ... ومنزل بعد أهله خرب
يغدو الفتى لاهيا بعيشته ... وليس يدري ما الصاب والضرب
ويقتني نبعة يصيد بها ... ونبع من حارب الردى غرب
لا يبلغ الريح أو يفارقه ... كماتح خان كفه الكرب
يا واردا لا يمل مورده ... حذار من أن يصيبك الشرب
تصبوا إلى اللهو غير مكترث ... واللهو فيه البوار والترب
وتترك البر غير محتسب ... أجرا وبالبر تفتح الأرب

ويقول أيضا مؤكدا حقيقة الموت بموت الملوك والعظماء فيخاطب من

---

١ - ديوان البارودي دار العودة بيروت ج١ ص ٨٦ ، ٨٧

بادوا من الجبابرة والعظماء. [١]

كل حي سيموت ... ليس في الدنيا ثبوت
حركات سوف تفنى ... ثم يتلوها خفوت
وكلام ليس يحلو ... بعده إلا السكوت
أيها السادر قل لي ... أين ذاك الجبروت
كنت مطبوعا على النط ... ق فما هذا الصموت
ليت شعري أهمود ... ما أراه أم قنوت
أين أملاك لهم في ... كل أفق ملكوت
زالت التيجان عنهم ... وخلت تلك التخوت

وبنبرة يعلوها اليأس من كل خير قد تأتي به الدنيا ، يبين أن ابن آدم في الدنيا تتجاذبه الكثير من المخاطر لعل أشدها خطرا هو الموت الذي قد يأتيه من حيث مأمنه ويعرض بمن ظلموه مبينا أن ظلمهم فاق ظلم الحجاج الذي ضرب به المثل في الظلم ومجاوزة الحد في العداوة والشر. يقول:[٢]

أبعد ستين لي حاج فأطلبها ... هيهات ما لامرئ بعد الصبا حاج
إن ابن آدم في الدنيا على خطر ... لا يستقيم له قصد ومنهاج
كأنما هو في فلك تحيط به ... من جانبيه أعاصير وأمواج
يهوى البقاء،ومكروه الفناء به ... ويستعز بأمن فيه إزعاج
لا أحفل الطير إن غنت وإن نعبت ... سيان عندي صقار وشحاج
يستعظمون من الحجاج صولته ... وكل قوم بهم للظلم حجاج

ومن الجدير بالذكر أن حديث البارودي عن حقيقة الموت لم يأت بجديد ، فجل ما قاله فيها قديم مطروح متداول فلم يتعمق ما بعد الموت من

---

١ - ديوان البارودي ج١ ص ٩٦ ، ٩٧

٢ - ديوان البارودي ج١ص ١٠٥ ، ١٠٦

سؤال الملكين وتثبيت الله للمؤمن فيه، ومن بعث وحشر ونشر وسوق إلى الله تعالى ، والموقف وأهواله وكلام الله تعالى لعباده يوم القيامة والخلود في الجنة أو النار إلى غير ذلك .

وقد نبه على ذلك د.عمر الدسوقي حيث قال في معرض حديثه عن زهده [١] ".....والموت يذكره بالعمل الصالح والإقلاع عن الغواية والجهل ،ويذكره بمن ماتوا قبله من ملوك وأمراء وأصحاب عروش وضياع ،ذهبوا وذهبت دنياهم الحافلة باللذات وعمرت منهم القبور ولم يزد عنهم الموت مالهم ولا جاههم إلى آخر هذه المعاني التي استنفدها من قبل أبو العتاهية وصالح ابن عبد القدوس وأضرابهما."

ويقرر البارودي حقيقة طالما رددها شعراء الزهد والتصوف من قبله ألا وهي أن الجزاء من جنس العمل والإنسان مجزى بعمله وأنه سيجد ما قدمت يده لا محالة إن خيرا فخير وإن شرا فشر. يقول:[٢]

كل امرئ واجد ما قدمت يده ... إذا استوى قائما من هوة الأدم
والخير والشر في الدنيا مكافأة ... والنفس مسؤولة عن كل مجترم
فلا ينم ظالما عما جنت يده ... على العباد فعين الله لم تنم

ويدعو نفسه إلى الصبر الجميل على ما يلاقي من الخطوب والنوازل فلا معنى للجزع والقنوط من قدر الله ويؤكد أن ما هو فيه من ضيق ، سحابة صيف عن قريب ستنقشع فهو موقن برحمة ربه الذي بيده تفرج الكروب وتصرف الأمور فيقول:[٣]

---

١ - في الأدب الحديث د.عمر الدسوقي صـ٢٣١

٢ - من قصيدة كشف الغمة في مدح سيد الأمة

٣ - ديوان البارودي جـ٢ صـ٣٢٧

أسلمت نفسي لمولى لا يخيب له ... راح على الدهر والمولى هو الواقي
وهون الخطب عني إنني رجل ... لاق من الدهر ما كل امرئ لاقي
يا قلب صبرا جميلا إنه قدر ... يجري على المرء من أسر وإطلاق
لابد للضيق بعد اليأس من فرج ... وكل داجية يوما لإشراق

ويؤكد ثقته بخالقه سبحانه وتعالى ،وأن ما هو فيه من ضيق مرده إلى انفراج، وعلى المرء أن يركن إلى الله تعالى في كل ما يلم به ويخشاه وأن يصبر على ما يبتليه الله به. (١)

فلا يشمت الأعداء بي فلربما ... وصلت لما أرجوه مما أحاذر
فقد يستقيم الأمر بعد اعوجاجه ... وتنهض بالمرء الجدود العواثر
ولي أمل في الله تحيا به المنى ... ويشرق وجه الظن والخطب كاشر
وطيد يزل الكيد عنه وتنقضي ... مجاهدة الأيام وهو مثابر
إذا المرء لم يركن إلى الله في الذي ... يحاذره من دهره فهو خاسر
وإن هو لم يصبر على ما أصابه ... فليس له في معرض الحق ناصر

ومما يتصل بغرض الزهد "مدح الرسول صلى الله عليه وسلم " فنراه في منفاه يتغنى بذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وبهديه الكريم وينظم في ذلك قصائد مختلفة لعل أروعها ملحمته التي سماها " كشف الغمة في مدح سيد الأمة " (٢) وخريدته كشف الغمة على رأس قصائد مديحه الذي ضمنها سيرته صلى الله عليه وسلم من حين مولده إلى أن انتقل صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه وكان هدفه من نظمها كما بين هو أن تكون ذريعه يمت بها يوم المعاد وسلما إلى النجاة من هول المحشر .

---

١ - ديوان البارودي جـ٢ صـ٨١،٨٢

٢ - البارودي رائد الشعر الحديث شوقي ضيف صـ٩٢

يقول فيها [١]:

ليت القطا حين سارت غدوة حملت ... عني رسائل أشواقي إلى أضم
مرت علينا خماصا وهي قاربة ... مر العواصف لا تلوي على أرم
لا شئ يسبقها إلا إذا اعتقلت ... بنانتي في مديح المصطفى قلمي

وقال في مديح المصطفى صلى الله عليه وسلم:[٢]

فليت من لامني لانت شكيمته ... فكف عني فضول المنطق السمج
يظن بي سفها أني على سرف ... ولا يكاد يرى ما فيه من عوج
فاعدل عن اللوم إن كنت امرأ فطنا ... فاللوم في الحب معدود من الهوج
هيهات يسلك لوم العاذلين إلى ... قلب بحب رسول الله ممتزج
هو النبي الذي لولا هدايته ... لكان أعلم من في الأرض كالهمج
أنا الذي بت من وجدي بروضة ... أحن شوقا كطير البانة الهزج
هاجت بذكراه نفسي فاكتست ولها ... وأي حب بذكر الشوق لم يهج
فما احتيالي ونفسي غير صابرة ... على البعاد وهمي غير منفرج
لا أستطيع براحا إن هممت ولا ... أقوى على دفع ما بالنفس من حوج
لو كان للمرء حكم في تنقله ... ما كان إلا إلى مغناه منعرجي
فهل إلى صلة الآمال من سبب ... أم هل إلى ضيقة الأحزان من فرج؟

وأنا أرجح أنها من قصائد المنفى إذ بها ما يدل على أن به وجد واشتياق لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم لكنه مهموم محزون ليس في حكم يده ولا يملك حرية التنقل والحركة وأنه يشكو فيها الضيق والحزن وسوء الحال ويتمنى انفراج الكرب عنه.

ويتضرع إلى الله تعالى داعيا ومتوسلا بالنبي صلى الله عليه وسلم ألا

---

١ - من المدائح النبوية تقديم د.سعد ظلام ج٢ ط الأولى ١٩٧٨م مطبوعات الشعب ص٤٥
٢ - ديوان البارودي ج١ ص ١٠٣ ، ١٠٤

يكله إلى نفسه لأنه عاجز ضعيف ، والله هو المستعان به في كل الأمـور ومن هول يوم القيامة يقول:[١]

يا رب بالمصطفى هب لي وإن عظمت ... جرائمي رحمة تغني عن الحجج
ولا تكلني إلى نفسي فإن يدي ... مغلولة وصباحي غير منبلـــج
مالي سواك وأنت المستعان إذا ... ضاق الزحام غداة الموقف الحرج
لم يبق لي أمل إلا إليك فلا ... تقطع رجائي فقد أشفقت من حرجي[٢]

ويقول في موضع آخر سائرا على نهج سابقيه [٣]:

يا حادي العيس إن بلغتي أملي ... من قصده فاقترح ما شئت واحتكم
سر بالمطايا ولا ترفق فليس فتى ... أولى بهذا السرى من سائق حطم
ولا تخف ضلة وانظر فسوف ترى ... نورا يريك مدب الذر في الأكم
وكيف يخشى ضلالا من يؤم حمى ... محمد وهو مشكاة على علـــم

ويدعو إلى التقرب إلى الله بالطاعة والسجود والخضوع له فبالطاعة يبلغ الإنسان ما يتمنى فهو مالك الملك الذي دانت له عاد وإرم والذي يحيي الموتى للحساب يوم المعاد يقول :[٤]

ومن يكن راجيا مولاه نال به ... ما لم ينله بفضل الجد والهمم
فاسجد له واقترب تبلغ بطاعته ... ما شئت في الدهر من جاه ومن إرم
يحيي البرايا إذا حان المعاد كما ... يحيي النبات بشؤبوب من الديم

ويطلب من الله مغفرة ذنبه وأن يعفو عنـــه ويصـــفح يـــوم الحشـــر

---

١ - ديوان البارودي ج١ ص ١٠٤

٢ - الحرج : الإثم والذنب

٣ - من المدائح النبوية تقديم د.سعد ظلام جـــ٢ ط الأولى ١٩٧٨م صـــــــــــ٧٩

٤ - من المدائح النبوية تقديم د. سعد ظلام ج٢ ص٧٩

ويستشفع بالنبي صلى الله عليه وسلم وكفى به شفيعا. يقول:[1]

يا غافر الذنب والألباب حائرة ... في الحشر والنار ترمي الجو بالضرم

حاشا لفضلك وهو المستعاذ به ... أن لا تمن على ذي خلة عـدم

إني لمستشفع بالمصطفى وكفى ... به شفيعا لدى الأهوال والقحم

فاقبل رجائي فمالي من ألوذ به ... سواك في كل ما أخشاه من فقم

---

١ - المرجع السابق

الشكوى:

الشكوى من الأغراض البارزة بين أغراض شعر المنفي عند البارودي ، فقد تعددت معانيها عنده واتسعت لتشمل شكوى الدهر والتبرم بالحياة والناس.والحنين والشوق ،والتوجع و التحسر والتلهف و الاستعطاف والاسترحام،والعتاب الرقيق.

يقول د/شوقي ضيف عن الشكوى عند البارودي [١]

ويقترن بظهور الهجاء في صحف أشعاره شكوى مرددة من الزمان ومن الناس و صلاته بهم إذ كان يرى في وضوح غدرهم و مكرهم وأنهم لا يحتفظون له بصنيع أو جميل.....ثم كان بلاء المنفى ، واشتعل بين بعض صحبه في سرنديب الجدل و الاتهام .فلا عجب أن أكثر من الشكوى من الناس و أخلاقهم و من الدهر وما يصبه علي الأحياء لا من الموت فحسب، بل أيضاً من الهموم والآلام "

وكثيراً ما نراه – في منفاه – يشكو الدهر وتقلب أحواله و لم لا و قد أظهر له ظهر المجن و كشَر عن أنيابه فبعد أن كان من ذوى السلطة و السلطان و صاحب سيف وربان سفين أصبح لا حول له ولا طول ، أبعد و نفي في مكان ناء بعيد بين أناس غير أناسه يدينون بغير دينه و يتكلمون بغير لغته لذا عاش محنة حقيقية قاسيه حق لمثله أن يضج و يصيح ويئن و يأسى.

فنراه يشكو الزمان، ويخلط شكواه بالفخر بنفسه فقد بز أقرانه، وقل أمثاله حلماً و علماً و فضلاً وسمو مكانه لذا يشعر بالاغتراب بين أناس

---

١ – البارودي رائد الشعر الحديث دار المعارف.ص١٢٠

زمانه. يقول:[١]

لكنني في زمان عشت مغترباً ... في أهله حين قلت فيه أمثالي
بلوت دهري،فما أحمت سيرته ... في سابق من لياليه ولا تالي
حلبت شطرية من يسر ومعسرة ... وذقت طعميه من خصب وإمحال
فما أسفت لبؤس بعد مقدرة ... ولا فرحت بوفر بعد إقلال
عفافة نزهت نفسي فما علقت ... بلوثة من غبار الذم أذيالي

ويشكو ثانية الدهر الذي فجعه في زوجه أم أولاده . وهو بهذا المكان النائي البعيد. فيقول :[٢]

يا دهر فيم فجعتني بحليلة ... كانت خلاصة عدتي وعتادي
إن كنت لم ترحم ضناي لبعدها ... أفلا رحمت من الأسى أولادي
أفردتهن فلم ينمن توجعاً ... قرحي العيون رواجف الأكباد
ألقين در عقودهن وصغن من ... در الدموع قلائد الأجياد
يبكين من وله فراق حفية ... كانت لهن كثيرة الإسعاد
فخدودهن من الدموع ندية ... وقلوبهن من الهموم صوادى

وخطاب مالا يعقل كما هو معلوم يدل علي الوله و التحير و عمق الأسى.

ويبدو أن البارودي كانت تنتابه في منفاه أوقات تتجاوز حد الشكوى والإفضاء إلى اليأس من الدهر و أناسه اسمعه يقول :[٣]

فقد ذقت طعم الدهر حتى لفظته ... وعاشرت حتى قلت لابن أخي دعني
ولولا أخ أحمدت في الود عهده ... علي حدثان الدهر ما كنت أستثني

١- ديوان البارودي جـ٣ ص١٠٠
٢ - ديوان البارودي ج١ ص١٥٤، ١٥٥
٣ - الديوان ج٤ ص٢٠

و كثيراً ما شكى البارودي فقد الخل الوفي و الصديق المخلص الودود الذي يصاحبه لغير حاجة فينادي مستغيثاً شاكياً :[١]

يا للحماة أما في الناس من رجلٍ ... واري الضمير،له عقل به يزن
أكل خل أراه لا وفاء له ... وكل قلب علي اليوم مضطغن
تغير الناس عما كنت أعهده ... فاليوم لا أدب يغني ولا فطن
فالخير منقبض والشر منبسط ... والجهل منتشر والعلم مدفن
لم تلق منهم سليماً في مودته ... كأن كل امرئ في قلبه دخن
طواهم الغي طي القد وانتشرت ... بالغدر بينهم الأحقاد والدمن[٢]
فلا صديق يراعي غيب صاحبه ... ولا رفيق على الأسرار يؤتمن
بلوتهم فسأمت العيش وانصرفت ... نفسي عن الناس حتى ليس لي شجن
فإن يكن فاتني ما كنت أملكه ... فالبعد عنهم لما أتلفته ثمن
كفى بحرب النوى سلما نجوت به ... ورب مخشية في طيها أمن

ونراه في موضوع آخر يشكو انعدام الوفاء بين الخلان والأصدقاء وأنه وضع حبه في غير موضعه كما يشكو عجزه عن تحقيق مآربه وحاجاته وأن هذا العجز قد حزبه وفطر قلبه وكان داعياً من دواعي حزنه وكآبته يقول:[٣]

بذلت في الحب نفسي وهي غالية ... لباخل بصفاء الود مناع
أشكو إليه ولا يصغى لمعذرتي ... من غير ذنب جنته النفس أوداعي
ويلاه من حاجة في النفس هام بها ... قلبي وقصر عن إدراكها باعي

---

١ - السابق ج٤ ص٣٨، ٣٩

٢ - القد: بكسر القاف السير يقد من الجلد أي يشف ويقطع

٣ - ديوان البارودي ج٢ ص٢٥٨

أسعي لها وهي مني غير دانية وكيف يبلغ شأو الكوكب الساعي

فالشكوى عند البارودي ما هي إلا إفضاء بما في النفس ،النفس الحبيسة التي أعجزها النفي عن تحقيق غاياتها وما ترنو إليه.

وشكى كثيرا قلة الوفاء في الناس وفقدان الخل الوفي الذي يصدق الود في السراء والضراء والسعة والرخاء وأن وجود الخل الوفي شئ صعب المنال في هذا الزمان. نراه يقول:[١]

فمن لي بخل صادق أستعينه على أملي أو ناصر أستمده
صحبت بني الدنيا طويلا فلم أجد خليلا فهل من صاحب أستجده
فأكثر من لا قيت لم يصف قلبه وأصدق من لاقيت لم يغن وده
أطالب أيامي بما ليس عندها ومن طلب المعدوم أعياه وجده
فما كل حي ينصر القول فعله ولا كل خل يصدق النفس وعده
وأصعب ما يلقى الفتى في زمانه صحابة من يشفي من الداء فقده

ويشكو ثانية الخلان والظلم الذي امتد أرجاء وطنه ، وقد خفف هذا الظلم العام من وطأة النفي عنده فيقول[٢]:

وعاشرت أخدنا فلما بلوتهم تمنيت أن أبقى وحيدا بلا خدن
إذا عرف المرء القلوب وما انطوت عليه من البغضاء عاش على ضغن
يرى بصري من لا أود لقاءه وتسمع أذني ما تعاف من اللحن
وكيف مقامي بين أرض أرى بها من الظلم ما أخنى عن الدار والسكن
فسمع أنين الجور قد شاك مسمعي ورؤية وجه الغدر حل عرا جفني
وصعب على ذي اللب رئمان ذلة يظل بها في قومه واهي المتن

وكان من دواعي شكواه شعور وإحساس بالغربة وعدم تأقلمه مع

---

١ - ديوان البارودي ج١ ص ١٤٢

٢ - السابق ج٤ ص ١١ ، ١٢

الوضع الذي فرض عليه ولا عجب فيعز على رب السيف الذي ملأ الأرض دويا وانتصارا وجولات أن ينفى ويعيش غريبا طيلة هذه الفترة. يقول:[١]

يا نديمي في سرنديب كفا ... عن ملامي فليس يغني الملام
أنا في هذه الديار غريب ... وغريب الديار ليس يلام
واذكرا لي فسطاط مصر فإني ... بهواها متيم مستهام

ويقول في موضع آخر :[٢]

أبيت في غربة لا النفس راضية ... بها ولا الملتقى من شيعتي كثب
فلا رفيق تسر النفس طلعته ... ولا صديق يرى ما بي فيكتئب

والبارودي كان صريحا مع نفسه ومع فنه فقد عبر خلاله عما يضنيه ويحزبه دون مواربة.

ونراه في موضع آخر يشكو ما يعانيه في منفاه من الهم والحزن، وما يكثر في أهل ذلك المنفى من الإحن والضغائن، فيقول:[٣]

ليت بريد الحمام يخبرني ... عن أهل ودي فلي بهم شجن
أهم على الود أم أطاف بهم ... واش أراهم خلاف ما يقنوا
فإن نسوني فذكرتي لهم ... وكيف ينسى حياته البدن
أصبحت من بعدهم بمضيعة ... تكثر فيها الهموم والإحن
بين أناس إذا وزنتهم ... بالذر عند البلاء ما وزنوا [٤]
لا في مودتهم إذا صدقوا ... ربح ولا في فراقهم غبن [١]

---

١ - الديوان - ج٣ ص٥٩٦

٢ - ديوان البارودي دار العودة -بيروت ص٧٣

٣ - ديوان البارودي ج٤ ص ٦٩ وما بعدها

٤ - الذر : صغار النمل وما يرى في شعاع الشمس الداخل من النافذة

من كل فظ يلوك في فمه ... مضغة سوء مزاجها عفن [٢]
ينضح شدقاه بالرؤال كما ... علَ بنضح العتيرة الوثن [٣]
شعث عراة كأنهم خرجوا ... من نفق الأرض بعد ما دفنوا
لا يحسنون المقال إن نطقوا ... جهلاً ولا يفقهون إن أذنوا
أري بهم وحشة إذا حضروا ... وطيب أنس إذا هم ظعنوا [٤]

فقد وصفهم بالخسة والحقارة وتفاهة الشأن وهوان الأمر ، والفظاظة والغلظة ، وليس أدل على فظاظتهم من مضغهم التبغ الذي يلوكونه في أفواههم بصورة مستهجنة مستقذرة ، أضف إلى ذلك أنهم جهلاء لا علم لهم ولا معرفة ترفعهم ، لذا فالشاعر يستوحش بحضورهم ويستأنس بغيابهم .

ويشكو في موضوع آخر الوحدة والوحشة والاغتراب فلا صديق يفضي إليه ولا حبيب يأنس له فأصبح في سرنديب يعانى الشوق والبعد والضعف والإهمال.يقول: [٥]

لا في سرنديب لي إلف أجاذبه ... فضل الحديث ولا خل فيرعى لي
أبيت منفرداً في رأس شاهقة ... مثل القطامي فوق المرباء العالي
إذا تلفت لم أبصر سوي صور ... في الذهن يرسمها نقاش آمالي
تهفو بي الريح أحياناً ويلحفني ... برد الظلال ببرد منه أسمال
ففي السماء غيوم ذات أروقة ... وفي الفضاء سيول ذات أوشال
فلو تراني ويردي بالندي لثق ... لخلتني فرخ طير بين أدغال

---

١ - الغبن : هو الختل والخديعة والمراد به هنا ما يقابل الربح

٢ - الفظ : هو الغليظ الجاف سيئ الخلق كريه الخلق

٣ - العتيرة : ذبيحة كانوا يذبحونها لآلهتهم في الجاهلية . والوثن : الصنم

٤ - ظعن بمعنى سار وارتحل

٥ - ديوان البارودي ج٣ ص ١٠٣ وما بعدها

.....

ونأي وتبريح ومعتبة ... يا للحمية من غدري وإهمالي
أصبحت لا أستطيع الثوب أسحبه ... وقد أكون وضافي الدرع سربالي
ولا تكاد يدي تجري شبا قلمي ... وكان طوع بناني كل عسال
فإن يكن جف عودي بعد نضرته ... فالدهر مصدر إدبار وإقبال
علام أجزع والأيام تشهد لي ... بصدق ما كان من وسمي وإغفالي

ويقول في موضع آخر شاكيا الغربة والوحشة والبعد [١]

لعمر الهوى إني لدن شفني النوى ... لفي وله من سورة الوجد ماحق
كفى بمقامي في سرنديب غربة ... نزعت بها عني ثياب العلائق

فمنذ أن أبعد ونفي أضناه البعد وأوجده واشتدت صبابته وشوقه إلى وطنه، ولم لا وهو بهذا المكان النائي السحيق غريبا قد قطعت ما بينه وبين وطنه وأهله من أواصر وصلات.

ونراه يشكو طول ليله وسهاده في حين أن غيره ممن لا هم لهم نائمون هاجدون والبارودي يحاول أن يتأقلم مع واقعه المضني ولكن هيهات فليس هذا بمقدوره فالنفس تهوى غير ما تملك اليد كما قال، ويصور شوقه إذا خطر خاطر يذكره بموطنه وإخوانه فيقول:[٢]

خليلي هل طال الدجى أم تقيدت ... كواكبه أم ضل عن نهجه الغد
أبيت حزينا في " سرنديب " ساهرا ... طوال الليالي والخليون هجد[٣]
أحاول مالا أستطيع طلابه ... كذا النفس تهوى غير ما تملك اليد
إذا خطرت من نحو حلوان نسمة ... نزت بين قلبي شعلة تتوقد[١]

---

١ - ديوان البارودي ج٢ ص٣٥٦

٢ - ديوان البارودي ط دار العودة - بيروت ص ١٧٠، ١٧١

٣ -- الخليون: جمع خلي وهو الخالي من الهم

وهيهات ما بعد الشبيبة موسم ... يطيب ولا بعد الجزيرة معهد [٢]
شباب وإخوان رزئت ودادهم ... وكل امرئ في الدهر يشقى ويسعد[٣]
وما كنت أخشى أن أعيش بغربة ... يعللني فيها خويدم أسود [٤]

ونراه يكثر في الأبيات من الاستفهامات التعجبية من طول الليل وبطئ انقضائه وكأن نواميس الحياة قد تغيرت وتكشف كلمة " حزينا " من فارس كميت عن مدى شدة الخطب ورزء المصيبة .

ومن طريف شكوى البارودي شكواه إلى سيفه الذي طالما استعان به على الأعداء وكان أداة نصر وعزة ونيل من الأعداء يراه اليوم لا حول له ولا طول فيحاوره حوارا طريفا على شاكلة قوله:[٥]

ولا صاحب غير الحسام منوطة ... حمائله مني على عاتق صلد
إذا حركته راحتي لملمة ... تطلع نحوي يشرئب من الغمد
أشد مضاء من فؤادي على العدا ... وأبطأ نصري على الشوق من فند
أقول له والجفن يكسو نجاده ... دموعا كمرفض الجمان من العقد
لقد كنت لي عونا على الدهر مرة ... فمالي أراك اليوم متثلم الحد
فقال : إذا لم تستطع سورة الهوى ... وأنت جليد القوم ما أنا بالجلد
وهل أنا إلا شقة من حديدة ... ألح عليها القين بالطرق والحد
فما كنت لولا أنني واهن القوى ... أعلق في خيط وأحبس في جلد
فدونك غيري فاستعنه على الجوى ... ودعني من الشكوى فداء الهوى بعدي

---

١ - خطرت : أتت ، نزت : وثبت ، تتوقد : تتقلب

٢ - الموسم : الزمن وأصله المعلم يجمع إليه الناس ويريد بالجزيرة روضة المقياس، المعهد : المنزل المعهود به الشئ

٣ - معنى رزئت ودادهم : أصبت بفقدان مودتهم لبعدي عنهم

٤ - علله بالطعام : شغله به والمراد يخدمني ويقوم بأمري

٥- ديوان البارودي ج١ ص٢٠٩

فهذا السيف الذي كان سبب مجده الحربي، يراه الآن قطعة من الحديد ضعيفة واهية،لا تستطيع أن تخفف عنه ضيق الحبس ولظى الجوى وحرق الوجد .فهذا التشخيص المجسم لصورة البارودي في منفاه وتصويره للسيف وأنه بصاحبه ليس غير ينقل لنا الحقيقة عارية مكشوفة لا مواربة فيها فلا قوة له إلا بحامله فما هو إلا : " شقة من حديدة " . " ألح عليها القين بالطرق والحد ".

ويهرع البارودي إلى ربه كثيرا شاكيا وداعيا أن ينتصف له من جور الجائرين وهو موقن بأنه سبحانه وتعالى قادر منتقم . يقول :[1]

شكوت بثي إلى ربي لينصفني ... من كل باغ عتيد الجور أو هكم
وكيف أرهب حيفا وهو منتقم ... يهابه كل جبار ومنتقم
لا غرو إن نلت ما أملت منه فقد ... أنزلت معظم آمالي بذي كرم

ويدعو الله سبحانه وتعالى في موضع آخر أن ينتصر له من هذا السلطان الجائر الذي بغى عليه وسلبه حقه واستولى على ما كسبه كسبا حلالا مشروعا لا شبهة فيه من غير ما ذنب جناه سوى أنه يحمل لسانا حرا يأبى الضيم ويسعى من أجل نصرة الحق. يقول :[2]

يا ناصر الحق على الباطل ... خذ لي بحقي من يدي ماطلي
جار على ضعفي بسلطانه ... وما رثى للمدمع الهاطل
أخرجني عما حوته يدي ... من كسبي الحر بلا ناطل
من غير ما ذنب سوى منطق ... ذي رونق كالصارم القاطل
أتلو به الحق وأرمي به ... نحر العدا في الرهج الساطل
فإن أكن جردت من ثروتي ... ففضل ربي حلية العاطل

---

١ - من المدائح النبوية تقديم د.سعد ظلام جـ٢ ط الأولى ١٩٧٨م مطبوعات الشعب

٢ - ديوان البارودي ج٣ ص١٩٨

ومن منطلق قول القائل " إن الأسى يبعث الأسى " نرى البارودي في مرثيته لصديقيه حسين المرصفي وعبد الله باشا فكري يشكو الغربة والشيب والضعف وصولة الحوادث ، ولم لا وقد عراه الشيب وهو بمنأى عن أهله وذويه وأخذت حواسه وجوارحه في الضعف والوهن. يقول :[١]

يا نديمي من سرنديب كفا ... عن ملامي وخلياني لما بي
كيف لا أندب الشباب وقد أص ... بحت كهلا في محنة واغتراب [٢]
أخلق الشيب جدتي وكساني ... خلعة منه رثة الجلباب [٣]
ولوى شعر حاجبي على عي ... ني حتى أطل كالهداب
لا أرى الشيء حين يسنح إلا ... كخيال كأنني في ضباب
وإذا ما دعيت حرت كأني ... أسمع الصوت من وراء حجاب
كلما رمت نهضة أقعدتني ... ونية لا تقلها أعصابي
لم تدع صولة الحوادث مني ... غير أشلاء همة في ثياب

وقد شكى البارودي الشيب كثيرا وبين أنه سبب القطيعة والغدر في الناس وهو المفقود الذي لا يعود. يقول:[٤]

لعمري لقد ولى الشباب وحل بي ... من الشيب خطب لا يطاق مرده
فأي نعيم في الزمان أرومه ... وأي خليل للوفاء أعده
وكيف أروم الناس في الغدر بعدما ... رأيت شبابي قد تغير عهده
وأبعد مفقود شباب رمت به ... صروف الليالي عند من لا يرده
فمن لي بخل صادق أستعينه ... على أملي أو ناصر أستمده

---

١ - ديوان البارودي ج١ ص٥٥، ٥٦

٢ - الكهل : من وخطه الشيب أي خالطه

٣ - الخلعة : ما تمنحه غيرك من الثياب

٤ - ديوان البارودي ج١ ص١٤٢

ومن أبرز قصائد الشكوى عنده قصيدته الدالية التي استهلها بقوله:

ترحل من وادي الأراكة بالوجد فبات سقيما لا يعيد ولا يبدي

وفيها يشكو حبه المستكن في نفسه لأهلـــه ووطنـــه ويشـــكو الســـقم المضني ، الذي ليس له دواء فهذا الهائم الصب به علة - إن لم يسلمها الله - فسوف يهلك لا محالة إذ هي داء عضال لا يرجى برأه، يقول[1]:

ترحل من واد الأراكة بالوجد فبات يقسما لا يعيد ولا يبدي
سقيما تظل العائدات حوانيا عليه بإشفاق وإن كان لا يجدي
يخلن به مسا أصاب فؤاده وليس به مس سوى حرق الوجد
به علة إن لم يصبها سلامة من الله كادت نفس حاملها تردى
ومن عجب الأيام أني مولع بمن ليس يعنيه بكائي ولا سهدي
أبيت عليلا في سرنديب ساهرا أعالج ما ألقاه من لوعتي وحدي
أدور بعيني لا أرى وجهه صاحب يريع لصوتي أو يرق لما أبدي

وقد عكست جملة " أدور بعيني " حالة القلق النفســـي التـــي انتابـــت الشاعر في منفاه،

وقد تختلط الشكوى عنده بالتوجع فنراه يشكو الوحدة وفقد الخل الوفي في منفاه، يقول:[2]

أكلف النفس صبرا وهي جازعة والصبر في الحب أعيا كل مشتاق
لا في سرنديب لي خل ألوذ به ولا أنيس سوى همي وإطرقي
أبيت أرعى نجوم الليل مرتفبا في قنة عز مرقاها على الراقي

ويشكو في " قصيدته كشف الغمة " الهموم والمصائب التي تترى عليه

---

١ - ديوان البارودي ج١ ص ٢٠٧ ، ٢٠٨

٢ - السابق ج٢ ص٣٢٢

كما يشكو الوحدة والغربة ، والتي كان من مسبباتها بلد المنفى تلك البلـــدة الظالم أهلها فهم وثنيون لا خلاق لهم لذا نراه يستغيث ويستجير مـــن هـــذا الداء العضال فيقول :[1]

تكاءدتني خطوب لو رميت بها ... مناكب الأرض لم تثبت على قدم
في بلدة مثل جوف العير لست أرى ... فيها سوى أمم تحنو على صنم
لا أستقر بها إلا على قلق ... ولا ألذ بها إلا على ألم
إذا تلفت حولي لم أجد أثرا ... إلا خيالي ولم أسمع سوى كلمي
فمن يرد على نفسي لبانتها ... أو من يجير فؤادي من يد السقم

---

١ - من المدائح النبوية تقديم د.سعد ظلام جـــ٢ ط الأولى ١٩٧٨م مطبوعات الشـــعب

المديح :

المديح في شعر المنفى لدى البارودي قليل وقد توجه به إلى بعض أصدقائه ممن ظلوا على ودهم له رغم طول الشقة وبعد الأمد.

وممن مدحهم البارودي الأستاذ سليم الشدياق نجل الأستاذ فارس الشدياق وممدوحا يسمى عليا والشيخ حسين المرصفي والشيخ محمد عبده والأديب شكيب أرسلان.

ومن الجدير بالذكر أن مديحه لهؤلاء يدور معظمه حول تصوير الوفاء وصدق الإخاء وحيازة الممدوح العديد من الخلال الكريمة والصفات النبيلة التي بها يتمدح الناس في القديم والحديث، فنراه يمدح الأستاذ سليم الشدياق في معرض رثائه لوالده الأستاذ أحمد فارس فيصفه بالفضل وجمعه ما تفرق في الناس من صفات الرفعة والشرف. فهو وقور حليم ثابت الجأش وهو فيما يبدو عليه من خلال وشمائل إنما توارثها عن أبيه. فيقول [1]

فإن يكن الشدياق خلى مكانه ... فإن ابنه عن حوزة الفضل يدفع
وما مات من أبقى على الدهر فاضلا ... يؤلف أشتات المعالي ويجمع
رزين حصاة الحلم لا يستخفه ... إلى اللهو طبع فهو بالجد مولع
تلوح عليه من أبيه شمائل ... تدل على طيب الخلال وتنزع
فصبرا جميلا "ياسليم" فإنما ... يسيغ الفتى بالصبر ما يتجرع

ومن الجدير بالذكر أنه في مديحه للأستاذ سليم الشدياق يسري عنه بعض الحزن لفقد والده.

وأحيانا يرد المديح عنده في معرض إجابته لبعض من راسله وواساه في منفاه فيصفه بذكاء الفؤاد وتوقده ، وجودة رأيه ، وقد فاق ببيانه وحسن نظمه

---

١ - ديوان البارودي ج٢ ص ٣٣٧ ، ٣٣٨

الحطيئة وجرير بن عطية الخطفي ، وهو بيان صادق لا تمويه فيه ولا تغرير ، يتمتع بحسن الجرس وشدة الأسر وحسن الوقع في القلوب ، ويشبه جمال أبياتـــه بالزهر الذي أصابه الندى فتضوعت رائحته وتأرجت أنفاسه ،وببيانه الصـــادق المؤثر أخضع العنيد الألد . واهتدى به الخطيب المصقع وقد نهض الشعر على يديه فقد أحيا باليه فيقول [١] مجيبا الأمير شكيب أرسلان:

وترنمت فوق الأراك حمامة ... تصف الهوى بلسان حب مولع

تدعو الهديل وما رأته وتلك من ... شيم الحمائم بدعة لم تسمع

.....

أملت عليَ قصيدة فجعلتها ... " لشكيب " تحفة صادق لم يدع [٢]

هي من أهازيج الحمام ، وإنما ... ضمنتها مدح الهمام الأروع [٣]

هو ذلك الشهم الذي بلغت به ... مسعاته أمد السماك الأرفع [٤]

نبراس داجية وعقلة شارد ... وخطيب أندية وفارس مجمع[٥]

صدق البيان أعض جرول باسمه ... وثنى "جريرا بالجرير الأطوع " [٦]

---

١ - ديوان البارودي ج٢ ص ٢٤٥ : ٢٥٢

٢ -التحفة : ما أتحفت به صاحبك من البر واللطف . ولم يدع : لا يدع الحب والوداد

٣ - الأهازيج : الأغاني والمراد بأهازيج الحمام : هديرها وسجعاتها المتوالية المتقاربة

٤ - الشهم :الذكي الفؤاد المتوقد الجلد : المساعي :مأثر أهل الشرف والفضل لسعيهم فيه. السماك: كوكب منير لامع يضرب به المثل في الإرتفاع

٥ - النبراس: السراج والمصباح - الداجية :الظلمة

٦ - صدق كصادق كامل. جرول:لقب الحطيئة الشاعر المخضرم المشهور ت س٥٩ هـ. والجرول: الأرض ذات الحجارة والمراد بقوله أعض جرول باسمه أي جعل يعض الحجر كناية عن إخماله والتفوق عليه وجرير هو أبو حزرة جرير بن عطية الخطفي اليربوعي أحد فحول الشعراء الإسلاميين وعلم من أعلام النقائض المبرزين . الجرير : الحبل يقاد به البعير ونحوه والشاعر يكنى بالشطر الثاني عن الممدوح أذل جريرا وغلبه بحسن بيانه وروعة شعره .

لم يتخذ بدر المقنع آية ... بل جاء خاطره بآية " يوشع" [١]

أحيا رميم الشعر بعد همودة ... وأعاد للأيام عصر الأصمعي [٢]

كلم لها في السمع أطرب نغمة ... وبحجرة الأسرار أحسن موقع [٣]

كالزهر خامرة الندى فتأرجت ... أنفاسه بالعنبر المتضوع [٤]

يعنو لها الخصم الألد ويغتذي ... بلبابها ذهن الخطيب المصقع

هي نجعة الأدب التي من أمها ... ألقى مراسيه بواد ممرع [٥]

ملكت هوى نفسي وأحيت خاطري ... وروت صدى قلبي ولذت مسمعي

فاسلم " شكيب " ولا برحت بنعمة ... تحنو عليك بأيكها المتفرغ

فلا أنت أجدر بالثناء لمنة ... أوليتها والبر أفضل ما رعى

أرهفت حدي فهو غير مفلل ... ورعيت عهدي فهو غير مضيع [٦]

وبثقت لي من غيض بحرك جدولا ... عمر البحار بسيله المتدفع [٧]

عذبت موارده فلو ألقت به ... هيم السحاب دلاءها لم تقلع [٨]

١- البدر : القمر إذا تم ضياؤه في منتصف الشهر العربي. المقنع :لقب رجال من بني الشيصبان اسمه ثور بن عميره ادعى الألوهيه أو التنبؤ بخراسان في منتصف القرن الثاني الهجري وكان يوهم الناس أنه يطلع البدر كل ليلة

٢ - الرميم: البالي .الهمود :الموت. الأصمعي :هو أبو سعيد بن عبد الملك بن قريب كان إماما في الأخبار والنوادر والملح والغرائب واللغة والشعر

٣ - الكلم :اسم جنس جمعي مفرده كلمة والمراد بيان الممدوح وشعره. والمراد بحجرة الأسرار : القلب مصدر ميمي بمعنى الوقوع

٤ - خامرة :خالطة. تأرجت أنفاسه :فاحت رائحته الطيبة وانتشرت المضوع المنشر الرائحة

٥ - النجعة : هو طلب الكلأ في موضعه يقال انتجع القوم إذا ذهبوا لطلب الكلأ في موضعه

٦ - إرهاف السيف : سنه وترقيق حده

٧ - بثقت : :أجريت من البثق : وهوكسر شط النهر لينبثق الماء ويسيل ويجري

٨ - عذبت : طابت وساغت والمراد بعذوبة موارد الشعر أي جودته وحسن قبوله والدلاء:جمع دلو وهي التي يستقي بها أي يستخرج بها الماء من الآبار ونحوها

وزهت فرائده فصارت غرة ... لجبين كل متوج ومقنع[١]

هو ذلك النظم الذي شهدت له ... أهل البراعة بالمقال المبدع[٢]

أبصرت منه أخا إياد خاطبا ... وسمعت عنترة الفوارس يدعي[٣]

وحلمت أني في خمائل جنة ... ومن العجائب حالم لم يهجع[٤]

فضل رفعت به منار كرامة ... صرف العيون عن المنار ليتبع[٥]

فمتى أقوم بشكر ما أوليتني ... والنجم أقرب غاية من مترعي

فاعذر إذا قصر الثناء فإنني ... رزت المقال فلم أجد من مقنع

لا زلت ترفل في وشاء سعادة ... وحبير عافية وعيش أمرع

ومن الملاحظ أن مديح البارودي يخلو من الوصف الحسي المادي والمدح بالصفات الجسدية فجل ما رأيناه مدح بالشهامة والوفاء وصدق الود والبيان وحسن البلاغة إلى آخره ، وفي آخر المدحة يوضح أنه لم يف بحق الممدوح من الثناء والفضل. كما لوحظ أن المدح عنده جاء في ثنايا قصائده فلم يفرد له البارودي قصائد بعينها.

١- زهت: لمعت وأشرقت وأضاءت. الفرائد: اللآلئ والدرر التي تفصل بين الذهب في القلادة

٢ - المبدع : البديع الطريف الرائع المبدع المخترع على غير مثال

٣ - أخو إياد : قس بن ساعده الأيادي أحد حكماء العرب في الجاهليه كان يضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة، عنترة الفوارس :عنترة بن عمرو بن شداد العبسي من أهل نجد كان من فرسان العرب المعدودين وشعرائهم المشهورين ومن أحسنهم شيمة وأعلاهم همة وأعزهم نفسا، يدعى: يخبر من نفسه بكرم فعاله

٤ - الخميلة :الشجر الكثير المجتمع الملتف، والجنة :الحديقة ذات الشجر والنخيل والأعناب

٥ - المنار :أعلام الطريق التي يهتدي بها المسافرون في الصحارى ونحوها ورفع منار الكرامة كناية عن ظهارها إظهارا تماما وتبع من تابعة اليمن أي ملوكها في الجاهلية وكانوا كأكاسرة الفرس وقياصرة الروم اوسمه أبرهة بن الحارث ومنار تبع أعلامه التي كان يقيمها على طريقه في مغازية وحروبه اشتهر بها ولقب بذي المنار

وقد يأتي المديح عنده كتنفس عن صدره المكلوم ونفسه التي تحمّل تجاه بني جنسه الكثير من العتاب لقلة الأوفياء وذوي الود والحب وفقدانه الصديق الوفي وتصوير شعوره بالاغتراب وسط أناس لا أدب لهم ولا علم فيجعل صفات هؤلاء الأراذل توطئة لمديح عظيم وسيد من سادات الهند. قائلا[١]:

فإن أخلفت نفس طوية ما وأت ... فلى من علي صاحب غير مخلف[٢]

همام دعا باسمي فلبيت صوته ... بيا مرحباه من فؤاد مكلف[٣]

ولو صاح بي في غارة لوزعتها ... على متن محبوك السراة بمرهف[٤]

ولكنني لبيت دعوة نظمه ... بأسمر مشقوق اللسان محرف[٥]

إذا حركته راحتي فوق مهرق ... بذكر علاه بذ كل مثقف[٦]

هو البطل السباق في كل غاية ... يهاب رداها المرء قبل التعسف[٧]

إذا قال لم يترك بيانا لقائل ... وإن سار لم يترك مجالا لمقتفي[٨]

ويستمر البارودي في وصف بلاغة هذا السيد وحسن بيانه وشعره الأخاذ ، فهذا الممدوح جدير بالود والحب فقد آنست إليه نفسه واطمأن إليه قلبه وقد توسم فيه الخير قبل لقائه فلما رآه وجده أهلا للشكر والثناء وصدَق الخبر الخبر.فيقول[٩]:

---

١ - الديوان جـ٢ صـ٢٦٨

٢ - وأت :بمعنى وعدت

٣ - الهمام :السيد الشجاع السخي. بيا مرحباه أي يا مرحبا به وفؤاد مكلف :قلب محب لك ومغرم بك

٤ - الغارة :الخيل المغيرة

٥ - المراد بالأسمر مشقوق اللسان : القلم

٦ - المثقف : الرمح المبدي المقوي

٧ - البطل: الشجاع المقدام . التعسف ركوب الأمر بلا تدبير ولا روية أو اليسر بغير هداية والمراد بالتعسف هنا اقتحام الأمر والإقدام عليه

٨ - المجال: موضع الجولان والطواف. والمقتفي اسم فاعل من اقتفى أثره أي تبعه ولحقه

٩ - ديوان البارودي ج٢ ص ٢٧٠ وما بعدها

له قلم لو كان للسيف حده ... لفل حبيك السرد في كل موقف [١]

وشعلة فكر لو بمثل ضيائها ... أنار سراج الأفق ماكان ينطفي

فسيح مجال الفكر ثبت يقينه ... بعيد مناط الهم حر التصرف [٢]

أديب له في جنة الشعر دوحة ... أفاءت على الدنيا بأجمل زخرف

إذا نورت أفنانها غب ديمة ... من الفكر جاءت بالبديع المفوف

ترنم فيها من ثنائي بلبل ... بلحن له في السمع نبرة معزف [٣]

حفيت له بالود مني وكيف لا ... أسابقه في وده وهو بي حفي [٤]

تألف نفسي بعد ما زال أنسها ... ونوه بأسمي بعدما كاد يختفي [٥]

وحرك أسلاك التراسل بيننا ... بسيال ود لفظه لم يحرف

وفي الناس معطوف على الود قلبه ... ومنهم سقيم العهد بادي التحرف

توسمت فيه الخير قبل لقائه ... وأحمدت منه الخبر بعد التعرف

وما حركات النفس إلا دلالة ... على صدق ما قالوا به في التعسف

فقد تكذب العين الفتى وهو غافل ... ويصدق ظن العاقل المتشوف

وفيت بوعدي في الثناء وإن يكن ... مقالي بهاتيك الفضائل لا يفي

وكيف وإن أوتيت في النظم قدرة ... أضم شتات الكون في بعض أحرف

وفي موضع آخر - وبعد مقدمة طويلة صور فيها شوقه وحنينه إلى

---

١ - السرد: الحلقة الحديدية أو الدروع والحبيك الموثق المشدود الحكم المتين والمراد أن قلم الممدووح أمضى من السيف القاطع وأنه يبلغ بقوة قلمه وسحر بيانه مالا يبلغه المحارب الشجاع بسيفه البتار

٢ - فسيح مجال الفكر أي أن فكره حر طليق ثبت يقينه أي علمه علم ثابت راسخ فهو علم حاصل عن نظر واستدلال

٣ - ترنم: غرد، والنبرة :الصوت، المعزف : من آلات اللهو والطرب كالعود ونحوه

٤ -حفيت به :تلطفت به وبالغت في إكرامه

٥ - تألف نفسي: أنسها والأنس الطمأنينة، نوه :بمعنى أشاد به ورفع ذكره

وطنه- يمدنا بمجموعة من الصفات الجليلة للشيخ حسين المرصفي فهو الرجل الفاضل الذي اكتملت فيه صفات الرجولة والشهامة ، عظيم الهمة وهو أخ وصديق مواس ودود ذو رأي صائب ، ويعترف البارودي بمدى إفادته من علمه ومعارفه وتجاربه وبتأثير الممدوح فيه وأنه ذو فراسة صادقة ، ولكل ما عرفه فيه من صفات حسنة وشجاعة نادرة استغنى به عما سواه من الناس فالبارودي يحمل له ود صادق وحب لا يخالطه شك ، فلو كلفه الممدوح أمرا يورده المهالك لأقدم عليه دون تردد أو توان. وفي نهاية إطرائه يدعو له بدوام الحياة النضرة وطول العمر ودوام العزة يقول[1]:

من العار أن يرضى الفتى غير طبعه ... وأن يصحب الإنسان من لا يشاكل
بلوت ضروب الناس طرا فلم يكن ... سوى المرصفي الحبر في الناس كامل
همام أراني الدهر في طي بردة ... وفقهني حتى اقتني الأماثل
أخ حين لا يبقى أخ ومجامل ... إذا قل عند النائبات المجامل
بعيد مجال الفكر لو جال خيله ... أراك بظهر الغيب ما الدهر فاعل
طرحت بني الأيام لما عرفته ... وما الناس عن البحث إلا محايل
فلو سامني ما يورد النفس حتفها ... لأوردتها والحب للنفس قاتل
فلا برحت مني إليه تحية ... تناقلها عني الضحى والأصائل
ولا زال غض العمر ممتنع الذرا ... مريع الفنا تطوى إليه المراحل

ولا نبالغ إذا قلنا إن جل مدائح البارودي في المنفى ، يصدّرها ببيان تغير الأحوال والنفوس وشكوى الوحدة والوحشة وإظهار الهم وفقدان الخل الوفي والعوز إلى الصديق والأنيس، وكأن الشاعر ينفس لصديقه أو لممدوحه عما في صدره المكلوم وجرحه الذي لا يندمل، فلم يكن له أن يطيب عيشه في المنفى ولما لا والدار غير الدار والأهل غير الأهل فلا

---

١ - ديوان البارودي جـ٣ صـ٧٠

أنيس يذهب وحشته، ولا صديق يخفف عنه لأواء الغربة ، يقول في مديحه لصديقه الشيخ محمد عبده بعد أن ذكر صفات أهل سرنديب [١]

وكيف لي بالمقام في بلد ... مالي بها صاحب ولا سكن
كل خليل لخله وزر ... وكل دار لأهلها أمن
فهل إلى عودة ألم بها ... شملي وألقى " محمدا "سنن
ذاك الصديق الذي وثقت به ... فهو بشكري ومدحتي قمن
عاشرته حقبة فأنجدني ... منه الحجا والبيان واللسن
وهو إلى اليوم بعد ما علقت ... بي الرزايا مخيل هتن
ينصرني حيث لا يكاد حم ... يمنحني وده ولا ختن
قد كان ظني يسيء بالناس لو ... لاه وفرد يحيا به الزمن
فهو لدى المعضلات مستند ... وعند فقد الرجاء مؤتمن
نمت على فضله شمائله ... ونفحة الورد سرها علن
لو كان يعلو السماء ذو شرف ... لكان بالنيرات يقترن
فليحى حرا ممتعا بجمي ... ل الذكر فالذكر مفخر حسن

وما أثنى به البارودي على الشيخ محمد عبده وامتدح فيه من صفات هي الصفات التي يحبها الشاعر ويحب بالتالي أن يجدها في صديقه ويرى أن تحققها في الشخص قمن أن يمتدح بها وأهم هذه الصفات رجاحة العقل ، واللسن والفصاحة والبر والوفاء في حالتي العسر واليسر ، والضيق والفرج ، والإنسان في حالة الشدة أحوج ما يكون إلى الصديق الذي يواسيه بماله ونفسه ويخفف عنه غلواء هذه الشدة. وكعادة البارودي في مديحه ينهي المدحة بالدعاء لممدوحه، بحياة ملؤها الحرية والعزة والكرامة والهناءة ، والذكر الجميل بين الناس وذيوع الصيت .

---

١ - الديوان ج٤ ص٧٣ : ٧٥

ومن الملاحظ أن تصوير الوفاء النادر والبيان الساحر لدى الصديق من المعاني المكررة في جل مدائحه.

وقد يمدح دون أن يصرح باسم الممدوح خشية وخوفا عليه من نقمة الحكام في مصر يقول مثنيا على صاحب له بعد أن صور شوقه لمصر ونيلها العطَاء [١]

حبذا النيل حين يجري فيبدي ... رونق السيف واهتزاز الفرند
لي به صاحب علي عزيز ... مثل ما عنده من الشوق عندي [٢]
أتمناه غير أن فؤادي ... من إسار النوى محاط بجند [٣]
فاهد مني له تحية صدق ... وتلطف بحالتي يا أفندي
أنا والله معرم بهواه ... حيثما درت بين هند وسند
إن شوقي إليه أسرع شأوا من "سليك" ... والوصل في بطء " فندي"[٤]
أسأل الدهر نعمة القرب منه ... وهو كز بنعمة ليس يندي
لو سوى الدهر رام غبني لأصحر ... ت مشيحا بالنصل فوق سمندي [٥]
لست أقوى على الزمان وإن كن ... ت أفل العدا بقوة زندي [٦]

---

١ - ديوان البارودي . ط دار العودة - بيروت ١٩٩٢ ص ١٦٩ ،١٧٠

٢ - قيل أنه يعني بصاحبه العزيز عليه الشيخ محمد عبده . ديوان البارودي

٣ - الإسار : سير من جلد

٤ - الشأو : السبق .. وسليك هو سليك بن السلكة فتاك صعلوك عداء أحد السعاة الأربعة المضروب بهم المثل في العدو والجري والسبق . وهم تأبط شرا والشنفري وعمرو بن أمية الضمري . وفند : اسم أبي زيد مولى عائشة بنت سعد بن أبي وقاص . وكانت أرسلته ليأتيها بنار فوجد قوما يخرجون إلى مصر فتبعهم ، وأقام بها سنة ثم قدم فأخذ نارا وجاء يعدوا فعثر وتبدد الجمر فقال تسعت العجلة فقيل أبطأ من فند

٥ - أصحر بمعنى برز إلى الصحراء وهو يكني بالإصحار عن الشجاعة والبروز للقتال . المشيح : المقبل عليك والمانع لما وراء ظهره . والنصل : حديدة الرمح . والسمند : الفرس وهي كلمة فارسية

٦ - أفل: أكسر . وفل الجيش : هزمه . والزند :موصل طرف الزراع في الكف وهو من

والبارودي يتخذ من التصوير وكثرة الحكي عن الحدث ، سبيلا لتفريغ شحنة الألم وطريقا للتسرية عن قلبه المكظوم وصدره المكلوم ، فهو من باب استرجاع الماضي الجميل الذي يحاول من خلاله قطع وقته الطويل وليله الذي يكاد لا ينقضي والذي صوره بأنه لطوله قد شد بأمراس وحبال .

وكان البارودي موفقا في مديحه ، سلك به مسلك المديح الجيد الذي دعا إليه ابن رشيق حين قال " وعلى الشاعر إذا مدح ملكا أن يسلك طريق الإيضاح والإشادة بذكر الممدوح وأن يجعل معانيه جزلة وألفاظه نقية غير مبتذلة سوقية، ويتجنب مع ذلك التقصير والتجاوز والتطويل " [١]

وقد كان السبب في مديح البارودي هو نفس ما دعا شعراء العربية الجاهلية كما قال ابن رشيق " وإنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة أو مكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر إعظاما لها " [٢]

مواطن القوة في الإنسان

١ - العمدة لابن رشيق دار الجيل -بيروت- ج٢ ص١٢٨

٢ - السابق ج١ ص ٨٠

الفخر:

الفخر كما عرفه أبو هلال العسكري "هو مدحك نفسك بالطهارة والعفاف والحلم والعلم والحسب وما يجري مجرى ذلك[١].

فالفخر : تغني الشاعر بمكارمه أو مكارم قومه، التي من شأنها أن ترفع صاحبها إلى مكانة سامية سامقة في المجتمع، والتي من شأنها أيضا أن تحمل الغير على إكباره وإعزازه وتكريمه، وللبارودي في منفاه فخر كثير يدور في معظمه حول التغني بشجاعته النادرة وفروسيته التي جابت البر والبحر وشيمه الكريمة ونبل أصله وبلاغته وفصاحة منطقه وشعره الأخاذ " ولو ذهبنا لنبحث عن علة لفخر الشاعر السجين لوجدنا أن الشاعر لا بد أن يتخذ من نكبته موقفا فإما أن يرتفع ويتسامى أو ينخفض ويرتكس ومن الشعراء من تتسامى نفسه والأزمة تعتصره ويقف للأعداء في إباء معجب وكثير من الشعراء ارتفع إلى هذا السمت وهم لا يجحدون النكبة الفادحة ، ولكنهم يجحدون أن توهن عزائمهم وأن تلفتهم عن أهدافهم.[٢]

يقول الدكتور .شوقي ضيف عن نفس البارودي الأبية وفخره بأصوله:"....وقد تحول كل ما كان في صدور هؤلاء الآباء وفي قلوبهم من بأس وعزة وإباء ومن كرم وسماحة وشيم رفيعة إلى البارودي بل لقد تحولت إليه الفروسية العربية بكل ما يذكى جذوتها من خصال نبيلة ، وانطبع ذلك في نفسه فظلت تتفجر به من صباه إلى منفاه.[٣]

وجاء غرض الفخر عند البارودي في ثنايا قصائده فلم يفرد له قصائد

---

١ - كتاب الصناعتين تحقيق على محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية صيدا بيروت ١٩٨٦م ص١٣٣

٢ - شعر الأسر والسجن في الأندلس - جمع د. نسيم عبد العظيم - مطبعة الخانجى بالقاهرة -الأولى ١٩٩٥م صـــــ١٤٣

٣ -البارودي رائد الشعر الحديث - دار المعارف الطبعة الخامسة صـــــــ١٠٦

بعينها ، وأتى به الشاعر لمقام اقتضاه ، كأن يصور ما حدث له من نفي وتشريد وأنه مع ما قام به من دور فعال في رفعة الدين والوطن لا يستحق ما حدث له فهو فارس شجاع مقدام مخلص لوطنه .....الخ. فنراه في معرض دفاعه عن نفسه يتغنى ببعض فضائله وشيمه النبيلة فيقول[١]:

فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ... ذنب أدان به ظلما وأغترب
فلا يظن بي الحساد مندمة ... فإنني صابر في الله محتسب
أثريت مجدا ،فلم أعبأ بما سلبت ... أيدي الحوادث مني فهو مكتسب
لا يخفض البؤس نفسا وهي عالية ... ولا يشيد بذكر الخامل النشب
إني امرئ لا يرد الخوف بادرتي ... ولا يحيف على أخلاقي الغضب
ملكت حلمي فلم أنطق بمندية ... وصنت عرضي فلم تعلق به الريب
وما أبالي ونفسي غير خاطئة ... إذا تخرص أقوام وإن كذبوا

فالبارودي يفخر بمجده وعزة نفسه وشدة بأسه وقوته ، وامتلاكه زمام نفسه وعنان أمره ، فلا يفسد الغضب عليه أخلاقه كما يفخر برزانته وأناته ورجاحة عقله فلم ينطق بمخزية.

ونراه يفخر في موضع آخر بأمانته وبفترة وزارة نظيفة له فقد كان عفيف النفس صانها عما يدنسها، وترفع عن الخيانة، وأنه في هذه الفترة قد أصلح الكثير من شؤون الدولة، وهو في معرض فخره يعرض بخيانة أعدائه فيقول[٢]:

علىَ طلاب العز من مستقره ... ولا ذنب لي إن عارضتني المقادر
فما كل محلول العريكة خائب ... ولا كل محبوك التريكة ظافر

---

١ - ديوان البارودي - دار العودة _ بيروت ١٩٩٢م صـ٧٥

٢ - ديوان البارودي جـ٢ صـ٨٤

فماذا عسى الأعداء أن يتقولوا ... عليَ وعرضي ناصح الجيب[١] وافر
فلي في مراد الفضل[٢] خير مغبة ... إذا شان حيا بالخيانة ذاكر
ملكت عقاب الملك وهي كسيرة ... وغادرتها في وكرها وهي طائر
ولو رمت ما رام امرؤ بخيانة ... لصبحني قسط ،من المال غامر
ولكن أبت نفسي الكريمة سوأة ... عابت بها والدهر فيه المعاير
فلا تحسبن المال ينفع ربه ... إذا هو لم تحمد قراه العشائر
فقد يستجم المال والمجد غائب ... وقد لا يكون المال والمجد حاضر

والبيت قبل الأخير متأثر بقول زهير بن أبي سلمى[٣]:

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يستغن عنه ويذمم

ويستطرد الشاعر في فخره مبينا أنه وإن كان قد دارت عليه الدوائر فإن هذا لا يقلل من مكانته ولا ينال من منزلته وفضله، فهو ثبت الجنان مستحكم القوى رغم عاديات الأيام، ويفخر بفصاحته وحسن منطقه وشجاعته وحسن بلائه في الحروب كما يفخر بقناعته ورضاه في حالتي اليسر والعسر ويسري عن نفسه بأن ما هو فيه من محنة وابتلاء قد أبتلي به غيره من الشجعان قبله، فلكل جواد كبوة وسوف تنقشع سحابة الغيم عن قريب - إن شاء الله- وتنجلي الغمرة فالله ينصر من يشاء يقول [٤]

ولو أن أسباب السيادة بالغنى ... لكاثر رب الفضل بالمال تاجر
فلا غرو إن حزت المكارم عاريا ... فقد يشهد السيف الوغي وهو حاسر
أنا المرء لا يثنيه عن درك العلا ... نعيم ولا تعدوا عليه المفاقر

١- ناصح الجيب يعني نقي خالص

٢ - مراد الفضل :مجاله

٣ - ديوان زهير بن أبي سلمى ط دار صادر - بيروت - ص٨٧

٤ - ديوان البارودي جـــــ٢ ص٨٦، ٨٧

قتول وأفواه الرجال عوازب ... صئول وأفواه المنايا فواغر
فلا أنا إن أدناني الوجد باسم ... ولا أنا إن أقصاني العدم باسر
فما الفقر إن لم يدنس العرض فاضح ... ولا المال إن لم يشرف المرء ساتر
إذا ما ذباب السيف لم يك ماضيا ... فحليته وصم لدى الحرب ظاهر
فإن كنت قد أصبحت فل رزية ... تقاسمها في الأهل باد وحاضر
فكم بطل فل الزمان شباته ... وكم سيد دارت عليه الدوائر
وأي حسام لم تصبه كلالة ... وأي جواد لم تخنه الحوافر
فسوف يبين الحق يوما لناظر ... وتزو بعوراء الحقود السرائر
وما هي إلا غمرة ثم تنجلي ... غيابتها والله من شاء ناصر
فقد حاطني في ظلمة الحبس بعدما ... ترامت بأفلاذ القلوب الحناجر

ولا يخفي على القارئ ما في فخره من تعريض بخيانة أعدائه.

كما يفخر بشدة ثباته وأن المحن والخطوب لم تنل من خلائقه وصفاته الكريمة، وهذا يزيد في كمد أعدائه وزيادة حسراتهم ويسعد أصدقائه ويسرهم. يقول [1]

فإن تكن الأيام رنقن مشربي ... وثلمن حدي بالخطوب الطوارق
فما غيرتني محنة عن خليقتي ... ولا حولتني خدعة عن طرائقي
ولكنني باق على ما يسرني ... ويغضب أعدائي ، ويرضى أصادقي
فحسرة بعدي عن حبيب مصادق ... كفرحة بعدي عن عدو مماذق
فتلك بهذي ، والنجاة غنيمة ... من الناس والدنيا مكيدة حاذق
ألا ،أيها الزاري علي بجهله ... ولم يدر أني درة في المفارق
تعز عن العلياء باللؤم واعتزل ... فإن العلا ليست بلغو المناطق
فما أنا ممن تقبل الضيم نفسه ... ويرضى بما يرضى به كل مائق

---

١ - ديوان البارودي جـــــ٢ صـــــ ٣٥٦ : ٣٥٨

ونراه يعزي نفسه ويهون عليها محنتها وخطبها بما يكبت أعداءه الذين سرهم نفيه وإبعاده مبينا أن محنته ستزول ويبقى ذكره الحسن وقدره السامي. يقول[١]:

فلا يسر عداتي ما بليت به ... فسوف تفنى ويبقى ذكري الحسن
ظنوا ابتعادي إغفالا لمنقبتي ... وذاك عز لها لو أنهم فطنوا
فإن أكن سرت عن أهلي وعن وطني ... فالناس أهلي وكل الأرض لي وطن
لا يطمس الجهل ما أثقبت من شرف ... وكيف يحجب نور الجونة الدخن

ونراه في مجال فخره يعزي نفسه ويسري عنها ويحملها على التجلد والصبر، فالأيام تشهد له بما كان يتوخاه في عمله من الصدق والإخلاص، وقد راجع ماضية وحاضره فلم ير فيه ما يزري بقدره أو يحط من شأنه ، ويعتب عتابا مرا على من جفاه وسلاه من أحبائه وبني وطنه ويفخر بفضل بوادره وبدائهه وسيرورة شعره وزيعان حكمه وأمثاله وفصاحة لسانه وسحر بيانه وتأثير شعره واحتوائه على عظات تهذب النفس وتهدي إلى الرشد وافتخر بما فيه من الروعة والجمال والصدق فشعره مرآة واضحة لنفسه وما تتميز به من الخصال والصفات دون مبالغة أو تزيد يقول:[٢]

علام أجزع والأيام تشهد لي ... بصدق ما كان من وسمي وإغفالي
راجعت فهرس آثاري فما لمحت ... بصيرتي فيه ما يزري بأعمالي
فكيف ينكر قومي فضل بادرتي ... وقد سرت حكمي فيهم وأمثالي
أنا ابن قولي وحسبي في الفخار به ... وإن غدوت كريم العم والخال
ولي من الشعر آيات مفصلة ... تلوح في وجنة الأيام كالخال
ينسى لها الفاقد المحزون لوعته ... ويهتدي بسناها كل قوال

---

١ - ديوان البارودي جـــ٤ ص٣٤، ٣٥

٢ - ديوان البارودي جـــ٣ ص ١١٢ وما بعدها

فانظر لقولي تجد نفسي مصورة ... في صفحتيه فقولي خط تمثال
ولا تغرنك الدنيا مشاكلة ... بين الأنام فليس النبع كالضال

ويفتخر في موضع آخر بحسن منطقه وفصاحة لسانه وذلاقته فيقـول في معرض وصفه لروضة بكندي ومجلس أنس ضمه وخلانه:[1]

وقال لي الخلان صف حسن يومنا ... فأنت بنجدي الكلام خليق
فرويت شيئا ثم جئت بمنطق ... ذكي يفوق المسك وهو فتيق
وكيف يغيب القول عني وفي فمي ... لسان كغرب المشرفي ذليق

وقال مفتخرا بحكمته الواسعة والتي صور نفسه في هذه الخبرة بمن يسير على قدم الخضر عليه السلام ولم لا وقد علاه الشيب وخبر الحياة والناس، كمـا يفخر بطبعه المواتي فهو شاعر مطبوع لا يتكلف القول تكلفـا ، وكمـا افتخـر برجاحة عقلة افتخر بحسن منطقه .فيقول[2] بعد أن أوصى بني جنسه:

فهذي وصاتي فاحتفظها تفز بما ... تمنيت من نيل السعادة في الدهر
فإني امرؤ جربت دهري وزادني ... به خبرة صبري على الحلو والمر
بلغت مدى خمسين وازددت سبعة ... جعلت بها أمشي على قدم الخضر
فكيف تراني اليوم أخشى ضلالة ... وشبي مصباح على نوره أسري
أقول بطبع لست أحتاج بعده ... إلى المنهل المطروق والمنهج الوعر
ولي من جناني إن عزمت ومقولي ... سراج وعضب ذا يضئ وذا يغرى
إذا جاش طبعي فاض بالدرر منطقي ... ولا عجب فالدر ينشأ في البحر
تدبر مقالي إن جهلت خليقتي ... لتعرفني فالسيف يعرف بالأثر
ولا تعجبن من منطقي إن تأرجت ... به كل أرض فهو ريحانة العصر
سيذكرني بالشعر من لم يلقني ... وذكر الفتى بعد الممات من العمر

---

١ - ديوان البارودي ج٢ ٣٣٢
٢ - السابق جـــ٢ صـــ١٩

وبنبرة عالية وأسلوب التعظيم نراه يفخر بشجاعة قومه وشدة بأسهم فقد اعتادوا الحروب وخبروا دروبها ومرسوها وقد عرفهم المجد فهم قـوم ذو همة وبسالة وإقدام ويفتخر بثباته ورباطة جأشه في ميـدان الحـروب وساحات الوغى. يقول[١]:

وإنا رجال تعلم الحرب أننا	بنوها،ويدري المجد ماذا نحاول
إذا ما ابتنى الناس الحصون ،فما لنا	سوى البيض والسمر اللدن معاقل
فما للهوى يقوى عليَ بحكمه	أما يدري أني الشمري[٢] الحلاحل؟
وإني لثبت الجأش[٣]مستحصد القوى	إذا أخذت أيدي الكماة الأفاكل
إذا ما اعتلقت الرمح والرمح صاحبي	على الشر قال القرن إني هازل
لطاعنت حتى لم أجد من مطاعن	ونازلت حتى لم أجد من ينازل
وشاغبت[٤] هذا الدهر مني بعزمة	أرتني سبيل الرشد والغي حائل

وفي معرض غزله ونسيبه بمن أحب ، يفخر بترفعه عما يشينه ويحط من قدره في عالم الهوى والصبابة، فلم يأت في الحب خطأ أو نقيصة رغم كثرة تطوافه في عالم الحب والصبابة، وسلوكه طرق المرح واللهو فقد كان في لهوه عفيفا بعيدا عن العيب والنقص ولم لا وقد ملك زمام نفسه وأحسن قيادها لذا لم يحتج إلى الاعتذار يوما. ويعدد جملة من خلاله الحميدة التي بها سما على أنداده ونظرائه منها حسن الظن بالصـديق ونقـاء عرضـه

---

١ - ديوان البارودي ج٣ ص ٦٤ : ٦٧

٢ - الشمري :الرجل المجد المجرب الذي اعتاد الحروب والحلاحل :ال سيد في عشيرته وقومه

٣ - ثبت الجأش:شديد مستحكم القوى جرئ شجاع مقدام والأفاكل :جمع الأفكل وهو الرعدة واضطراب الجسم وارتعاشه

٤ - الشغب :الخصام إثارة الفتن والاضطراب

وسلامة يده فليس مطلوب بوتر لمعشر فيزعجه ويقض مضجعه

ومنها غناه ورضا نفسه فلا هو يطلب كثيرا من المال ومنها نية خالصة صادقه فيما يقوم به من عمل. فيقول [١]:

رأى كلفي لا يستفيق فظن بي ... هنات وسوء الظن داعية الوزر
وماذا عليه وهو خال من الجوى ... إذا همت شوقا أو ترنمت بالشعر
فإن أك مشغوفا فذو الحلم ربما ... أطاع الهوى والحب من عقد السحر
وأي امرئ يقوى على رد لوعة ... إذا التهبت أربت على وهج الجمر؟
على أنني لم آت في الحب زلة ... تغض بذكرى في المحافل أو تزري
ولكنني طوفت في عالم الصبا ... وعدت ولم تعلق بفاضحة أزري
سجية نفس آثرت ما يسرها ... وللناس أخلاق على وفقها تجري
ملكت يدي عن كل سوء ومنطقي ... فعشت برئ النفس من دنس العذر
وأحسنت ظني بالصديق وربما ... لقيت عدوي بالطلاقة والبشر
فأصبحت مأثور الخلال محببا ... إلى الناس ، مرضي السريرة والجهر
فما أنا مطلوب بوتر لمعشر ... ولا أنا ملهوف الجنان على وتر
رضيت من الدنيا وإن كنت مثريا ... بعفة نفس لا تميل إلى وفر
وأخلصت للرحمن فيما نويته ... فعاملني باللطف من حيث لا أدري
إذا ما أراد الله خيرا بعبده ... هداه بنور اليسر في ظلمة العسر

وهاكه جملة من فضائله وشيمه الحميدة أيضا فهو حر أبي يسير على هدى آبائه وأجداده ذوي المروءة والرفعة والأخلاق الكريمة كما يفتخر بوفائه للعهد وسلامة الصدر ونظافة اليد وصدق اللسان. يقول[٢]:

لا عيب في سوي حرية ملكت ... أعنتي عن قبول الذل بالمال

---

١ - الديوان جـ٢ صـ١٢

٢ - الديوان جـ٣صـ٩٨

تبعت خطة آبائي فسرت بها ... على وتيرة آداب وآسال[١]
فما يمر خيال الغدر في خلدي ... ولا تلوح سمات الشر في خالي
قلبي سليم ونفسي حرة ويدي ... مأمونة ،ولساني غير ختال [٢]
لكنني في زمان عشت مغتربا ... في أهله حيت قلّت فيه أمثالي

ويقول في موضع آخر مفتخرا بكرم محتده ونبل أصله وشجاعته وإبائه[٣]:

وما أنا بالمغلوب دون مرامه ... ولكنه قد يخذل المرء جهده
وما أبت بالحرمان إلا لأنني ... أود من الأيام ما لا توده
أبت لي حمل الضيم نفس أبيّة ... وقلب إذا سيم الأذى شب وقده
نماني إلى العلياء فرع تأثلت ... أرومته في المجد وافتر سعده
وحسب الفتى مجدا إذا طالب العلا ... بما كان أوصاه أبوه وجده
إذا ولد المولود منا فدره ... دم الصيد والجرد العناجيج مهده
فإن عاش فالبيد الدياميم داره ... وإن مات فالطير الأضاميم لحده
أصد عن المرمى القريب ترفعا ... وأطلب أمرا يعجز الطير بعده

ويعلق د.شوقي ضيف على هذه القصيدة بقوله :وقصيدته التي نظمها بسرنديب والتي يفتتحها بقوله : " رضيت من الدنيا بما لا أوده " تمتلئ على الرغم من شعوره بحظه العاثر بالثورة على الظلم والظالمين .

ونراه – وهو الأبي عزيز النفس – يهدد ويتوعد بيوم ينتصر فيه الحق ويعلو صوته يوم يدير أمره شيوخ مجربون بلوا الحرب ويخوض

١- الآسال :الشمائل والأخلاق
٢ – الختل : المكر والاحتيال وإرادة الشر المكروه
٣ – ديوان البارودي ج١ ص ١٤٣ : ١٤٦

غماره شباب يافعون . يقول:[١]

ولا بد من يوم تلاعب بالقنا ... أسود الوغى فيه وتمرح جرده
يمزق أستار النواظر برقه ... ويقرع أصداف المسامع رعده
تدير أحكام الطعان كهوله ... وتملك تصريف الأعنة مرده
قلوب الرجال المستبدة أكله ... وفيض الدماء المستهلة ورده
أحمل صدر النصل فيه سريرة ... تعد لأمر لا يحاول رده
فإما حياة مثل ما تشتهي العلا ... وإما ردى يشفى من الداء وفده

ونجده - في معرض فخره - يدافع عن نفسه ويرد على من اتهموه بالخروج على السلطان، مبينا أنه رغب في تحقيق العدل وليس له مأرب في ذلك غير طاعة الله تعالى الذي أمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحقيق مبدأ الشورى ، ويرى أن الإنسان إذا رضي بالظلم وبحكم من يخالف أمر الله تعالى يكون منافقا وليس هذا من شيمه وأخلاقه، لذا لم يأل جهدا لنصح قومه بيد أنهم أبانوا عن غدر ولم يقبلوا قول صادق، ولما وصل السيل الزبى قام جماعة مخلصين من الجند بالثورة يؤازرهم المدنيين من الناس. يقول:[٢]

يقول أناس أنني ثرت خالعا ... وتلك هنات لم تكن من خلائقي
ولكنني ناديت بالعدل طالبا ... رضا الله واستنهضت أهل الحقائق
أمرت بمعروف وأنكرت منكرا ... وذلك حكم في رقاب الخلائق
فإن كان عصيانا قيامي فإنني ... أردت بعصياني إطاعة خالقي
وهل دعوة الشورى عليَ غضاضة ... وفيها لمن يبغى الهدى كل فارق؟
بلى إنها فرض من الله واجب ... على كل حي من مسوق وسائق

---

١ - الديوان ج١ ص ١٤٧ ، ١٤٨

٢ - ديوان البارودي ج٢ ص٣٥٩ وما بعدها

وكيف يكون المرء حرا مهذبا ... ويرضى بما يأتي به كل فاسق
فإن نافق الأقوام في الدين غدرة ... فإني بحمد الله غير منافق
على أنني لم آل نصحا لمعشر ... أبى غدرهم أن يقبلوا قول صادق
رأوا أن يسوسوا الناس قهرا فأسرعوا ... إلى نقض ما شادته أيدى الوثائق
فلما استمر الظلم قامت عصابة ... من الجند تسعى تحت ظل الخوافق
وشايعهم أهل البلاد فأقبلوا ... إليهم سراعا بين آت ولاحق
يرومون من مولى البلاد نفاذ ما ... تألاه من وعد إلى الناس صادق
فهذا هو الحق المبين فلا تسل ... سواي فإني عالم بالحقائق

ويقول د. شوقي ضيف عن فخره بعامة[1]: " والبارودي في فخره يتناهى إلى الغاية التي ليس من ورائها غاية ،لسبب طبيعي وهو أنه يستمد من روحه، وهي روح حربية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، فقد بدأ حياته في المدرسة الحربية وانتظم في سلاح الفرسان ، وتقاذفته المعارك في " كريت " وفي " القرم " وما وراءها من بلاد البلغار ومن البلقان ومن أجل ذلك امتزج فخره بالحماسة ووصف الملاحم الحربية وصفا رائعا لا يكاد يترك فيه كبيرة ولا صغيرة تسعفه في ذلك عين باصرة تلتقط المشاهد وتبرزها في أوضح صورة .

---

١ - البارودي رائد الشعر الحديث صـــــــ١٠٧

التوجع والتحسر والتلهف :

أنَ البارودي كثيرا في منفاه وشكي الغربة ،وفقدان الخل الوفي والصديق الذي يكفكف دمعه ويخفف من وطأة المنفى ووحشة الغربة .

والتحسر يعني في اللغة : التلهف، والحسرة أشد الندم ، كما جاء في لسان العرب .والتحسر هو إبداء الشاعر تحزنه وشدة أسفه على ما فات ، وقد يكون التحزن والتحسر نتيجة تفريط الشخص في جانب ما مما يقتضي التأسف له لعدم استطاعته على استرجاع ما فات وقد يكون بسبب حالة ضنك وسوء منقلب وقع فيه الشاعر،

وما يبدو في شعر البارودي هو من النوع الثاني الذي حركته ظروف المنفى والإبعاد عن الأهل والوطن والخلان فكان داعيا لإبداء أسفه وتحسره على أيامه الخوالي التي نعم فيها بكل ما من شأنه أن يسعد الإنسان من عز وجاه وسلطان وأهل وولد وفتوة وقوة وسحر بيان، فنراه في طريقه إلى منفاه يبدي تحسرا وأسفا لنفيه وإبعاده عن وطنه، ويصور جزعه وولعه لفراق أهله وذويه قائلا:(١)

محا البين ما أبقت عيون المها مني ... فشبت ولم أقض اللبانة من سني
عناء ويأس واشتياق وغربة ... ألا شد ما ألقاه في الدهر من غبن
فإن أك فارقت الديار فلي بها ... فؤاد أضلته عيون المها مني
بعثت به يوم النوى إثر لحظة ... فأوقعه المقدار في شرك الحسن
فهل من فتى في الدهر يجمع بيننا ؟ ... فليس كلانا عن أخيه بمستغن
ولما وقفنا للوداع وأسبلت ... مدامعنا فوق الترائب كالمزن
أهبت بصبري أن يعود فعزني ... وناديت حلمي أن يثوب فلم يغن

---

١ - ديوان البارودي ج٤ ص٣ وما بعدها

ولم تمض إلا خطرة ثم أقلعت ... بنا عن شطوط الحي أجنحة السفن
فكم مهجة من زفرة الوجد في لظى ... وكم مقلة من غزرة الدمع في دجن
وما كنت جربت النوى قبل هذه ... فلما دهتني كدت أقضي من الحزن
ولكنني راجعت حلمي وردني ... إلى الحزم رأي لا يحوم على أفن

ونراه أيضا يتحسر على أيام صباه التي مضت بلا عودة، أيام نعم فيها بما لذ من سطوة وفتوة ، لذا نراه يسترجع ذكرى هذه الأيام الخالية فيقول:[١]

أين أيام لذتي وشبابي ... أتراها تعود بعد الذهاب[٢]
ذاك عهد مضى وأبعد شيء ... أن يرد الزمان عهد التصابي

ويقول في موضع آخر متحسرا على ماضيه الخالي الذي انصرم وذهبت بذهابه مسراته ، فقد انتابته في منفاه الوساوس والأفكار وبرح به الشوق حتى أضناه وأبكاه وحرم عليه النعاس ، في حين يجد الخليون حوله نائمون هاجدون. يقول:[٣]

مضى اللهو إلا أن يخبر سائل ... وولى الصبا إلا بواق قلائل
بواق تماريها أفانين لوعة ... يؤرثها فكر على النأي شاغل
فللشوق مني عبرة مهراقة ... وخبل إذا نام الخليون خابل
ألفت الضنى إلف السهاد فلو سرى ... بي البرء غالتني لذاك الغوائل
فلله هذا الشوق أي جراحة ... أسال بنا ؟ حتى كأنا نقاتل
رضينا بحكم الحب فينا وإننا ... للدة التفت علينا الجحافل

---

١ - ديوان البارودي دار العودة بيروت ١٩٩٢ ص٦٦ :٦٩
٢ - أتراها : أتظنها
٣ - ديوان البارودي ج٣ ص ٦١ وما بعدها

وتعاورته في منفاه العديد من الحوادث والفواجع لعل أشدها إيجاعـا موت زوجه ورفيقة دربه ، فتحسر البارودي واعتصر قلبه كثيرا في منفاه لموتها ، وموت أصدقائه وخلانه الأوفياء من بعدها وهو بهذا المكان النائي ، فمرثياته لهؤلاء تسفر عن كمد وحسرة مريرة حتى لنراه يقول في رثائه زوجه:(١)

أبلتني الحسرات حتى لم يكد ... جسمي يلوح لأعين العواد
أستنجد الزفرات وهي لوافح ... وأسفه العبرات وهي بوادي
لا لوعتي تدع الفؤاد ولا يدي ... تقوى على رد الحبيب الغادي

وكأنه يرثي نفسه من خلال رثائه لأترابه وكأنه يقول فما دام الموت قد دهاني في أترابي فلا ريب أنه آت إليَ عن قريب. يقول في مرثيتـه لصديقيه حسين المرصفي وعبد الله فكري(٢)

لم تدع صولة الحوادث مني ... غير أشلاء همة في ثياب
فجعتني بوالدي وأهلي ... ثم ألحت تكر في أترابي
كل يوم يزول عني حبيب ... يا لقلبي من فرقة الأحباب

كما تحزن وتوجع كثيرا لوجوده بين من لا تميل النفس إليه، ولفقده الخـل الوفي وتمنى ماجدا كريما يكون عونا له على كشف همه وحزنه. يقول :(٣)

قليل بآداب المودة من يفي ... فمن لي بخل أصطفيه وأكتفي ؟
بلوت بني الدنيا فلم أر صاحبا ... يدوم على ود بغير تكلف
فهل من فتى يسرو عن القلب همه ... بشيمة مطبوع على المجد مسعف ؟
رضيت بمن لا تشتهي النفس قربه ... ومن لم يجد مندوحة يتكلف

---

١ - ديوان البارودي ج١ ص ١٩٠
٢ - ديوان البارودي ج١ ص٥٥
٣ - ديوان البارودي ج٢ ص٢٦٤

ولو أنني صادفت خلا يسرني　　على عدواء الدار لم أتلهف

ونراه يصور حزنه وشدة وجده ومدى تحسره لحاله ، حيث يبيت ساهرا ساهدا مهموما بينما يرى الخليون ومن لا همَ لهم نائمون هاجدون ، وإذا ما هبت نسمة من جهة موطنه أحرقت كبده وزادته موجدة وصبابة وذكرته بماضيه الداثر. فيقول على سبيل التجريد:(١)

خليلي هل طال الدجى أم تقيدت　　كواكبه أم ضل عن نهجه الغد

أبيت حزينا في " سرنديب " ساهرا　　طوال الليالي والخليون هجد

أحاول مالا أستطيع طلابه　　كذا النفس تهوى غير ما تملك اليد

إذا خطرت من نحو حلوان نسمة　　نزت بين قلبي شعلة تتوقد (٢)

وهيهات ما بعد الشبيبة موسم　　يطيب ولا بعد الجزيرة معهد

شباب وإخوان رزئت ودادهم　　وكل امرئ في الدهر يشقى ويسعد(٣)

وما كنت أخشى أن أعيش بغربة　　يعللني فيها خويدم أسود

وتوجع كثيرا لما آل إليه حاله من الضعف، فأصبح رب السيف لا حول له ولا طول. فيقول متحسرا مستسلما لقضاء الله:(٤)

فاليوم لارسني طوع القياد ولا　　قلبي إلى زهرة الدنيا بميال

لم يبق لي أرب في الدهر أطلبه　　إلا صحابة حر صادق الخال

وأين أدرك ما أبغيه من وطر　　والصدق في القول أعيا كل محتال

لا في سرنديب لي إلف أجاذبه　　فضل الحديث ولا خل فيرعى لي

فأكثر ما يشكوه في المنفى ويتحسر عليه ويأسف له هو انعدام الخل الوفي الذي يستمع إليه ويخفف عنه بعض موجدته.

---

١ - ديوان البارودي ج١ ص٢١٩

٢ - خطرت : أتت . نزت : وثبت . تتوقد : تتقلب

٣ - معنى رزئت ودادهم : أصبت بفقدان مودتهم لبعدي عنهم

٤ - ديوان البارودي ج٣ ص١٠٢

ونراه يأسف لنفيه وإبعاده عن بنياته وزوجته، وتركهم بـــلا راع ولا حام ولا أحد يئل إليه أمرهم. يقول :[١]

ولم تمض إلا خطرة ثم أقلعت ... بنا عن شطوط الحي أجنحة السفن
فكم مهجة من زفرة الوجد في لظى ... وكم مقلة من غزرة الدمع في دجن[٢]
وما كنت جربت النوى قبل هذه ... فلما دهتني كدت أقضي من الحزن
ولكنني راجعت حلمي وردني ... إلى الحزم رأي لا يحوم على أفن [٣]
ولولا بنيات وشيب عواطل ... لما قرعت نفسي على فائت سني[٤]
فيا قلب صبرا إن جزعت فربما ... جرت سنحا طير الحوادث باليمن
فقد تورق الأغصان بعد ذبولها ... ويبدو ضياء البدر في ظلمة الوهن[٥]
وأي حسام لم تصبه كهامة ... ولهزم رمح لا يفل من الطعن

فقد عبر البارودي في بيته الثاني عن حاله واجتواء قلبه.

وقد سبقه أبو فراس حين عبر عما انتابه في أســره مــن أســى ومرض فقال:[٦]

وما نال مني الأسر ما تريانه ... ولكني دامي الجراح عليل
جراح تحاماها الأساة مخوفة ... وسقمان باد منهما ودخيل

والبارودي كان أبلغ في التعبير عن ألمه من أبي فراس لأنه عبر عن ذلك بكم الدالة على الكثرة ، أما أبو فراس فقال: وما نال مني الأســر مــا تريانه ،وألمه لم تره في أسره ولم تر أسقامه ، أضف إلى ذلك أنــه كــرر

---

١ - الديوان ج٤ ص٦ وما بعدها . الخطرة : الحين والوقت

٢ - زفرة الوجد : زفرة بمعنى لوعة والوجد : الأسى والحزن . الدجن : المطر الغزير

٣ - الأفن : الضعف والفساد ونقص العقل

٤ - شيب عواطل : شيب جمع الأشيب . عواطل : خلت من الحلي

٥ - الوهن : نحو من نصف الليل

٦ - ديوان أبي فراس ص٢٥٢

معنى البيت الأول في الشطر الثاني من البيت الثاني ، أما البارودي فقد عبر عن ألمه النفسي وألمه الجسدي في بيت واحد.

ونراه يتحسر على ما كان عليه بمصر قبل نفيه من عز وسلطان ، وكذا شدة بأسه في الحروب ومدى خشية عدوه منه بمجرد أن يسمع به وقبل أن يراه، وما كان له من مكانة في قومه. يقول في معرض تصوير شوقه وتمنيه العودة إلى وطنه [١]

يا هل أراني بذاك الحي مجتمعا ... بأهل ودي من قومي وأشياعي ؟
وهل أسوق جوادي للطراد إلى ... صيد الجآزر في خضراء ممراع؟
منازل كنت منها في بلهنية ... ممتعا بين غلماني وأتباعي
إذا أشرت إليهم في حاجة بدروا ... قضاءها قبل أن يرتد إلماعي
يخشى البليغ لساني قبل بادرتي ... ويرعد الجيش باسمي قبل إيقاعي

ويندب وطنه متحسرا على بعده عنه فيناديه نداء المتوجع المكلوم قائلا:[٢]

واطول شوقي إليك يا وطني ... وإن عرتني بحبك المحن
أنت المنى والحديث إن أقبل الص ... بح وهمي إن رنق الوسن
فكيف أنساك بالمغيب ولي ... فيك فؤاد بالود مرتهن
لست أبالي وقد سلمت على الد ... هر إذا ما أصابني الحزن

ويتحسر البارودي على شبابه وماضيه الدائر وما صحبه من قوة وفتوة ، ويبين أن هذا الماضي إذا لاحت مخايله في نفسه أثار همومه وأشجاه وأضنى مضجعه. يقول بصوت عال جهور :[٣]

---

١ - ديوان البارودي ج٢ ص ٢٥٩

٢ - السابق ج٤ ص ٦٨

٣- السابق ج٣ ص٩٣ وما بعدها

ردوا عليَ الصبا من عصري الخالي ... وهل يعود سواد اللمة البالي ؟
ماض من العيش ما لاحت مخايله ... في صفحة الفكر الا هاج بلبالي
سلت قلوب فقرت في مضاجعها ... بعد الحنين وقلبي ليس بالسالي
لم يدر من بات مسرورا بلذته ... أني بنار الأسى من هجره صالي

ونراه يتأسف أيضا على ما آل إليه حاله وما صار إليه أمره في منفاه من ضعف وكبر فيقول:[١]

فاليوم أصبحت لا سهمي بذي صرد ... إذا رميت ولا سيفي بقطاع
أبيت في قنة قنواء قد بلغت ... هام السماك ، وفاتته بأبواع [٢]
أظل فيها غريب الدار مبتئسا ... نابي المضاجع من هم وأوجاع

ونراه يتأسف ويئن كثيرا لشعوره بالغربة النفسية بين بني جنسه فيقول:[٣]

غريب تخطاه الأساة فما له ... سوى عبرات المقلتين طبيب
وما أسفي أني غريب عن الحمى ... ولكنني بين الأنام غريب

ونراه يتوجع من حرق الوجد ولواعج الشوق والهوى ، ويشكو أرقه وسهاده وطول ليله وشدة ظلمته ، كما يصور ما كان ينتابه في منفاه من عوامل الرجاء واليأس، فيقول:[٤]

ويلاه من نار الهوى إنما ... لولا دموعي أحرقت أضلعي
أبيت أرعى النجم من سدفة ... ضل بها الصبح فلم يطلع

---

١ - السابق ج٢ ٢٦٠

٢ - القنة : أعلى الجبل . قنواء : عالية مرتفعة ، السماك : نجم نير يضرب به المثل في الارتفاع الأبواع : جمع البوع وهي مسافة مابين الكفين إذا بسطتهما .

٣ - ديوان البارودي ج١ المقدمة ص٤٠ بخط المؤلف

٤ - ديوان البارودي ج٢ ص ٢٢٠

لا أهتدي فيها إلى حيلة ... تقي حياتي من يدي مصرعي
طورا أداري لوعتي بالمنى ... وتارة يغلبني مدمعي
فهل إلى الأشواق من غاية؟ ... أم هل إلى الأوطان من مرجع
لا تأس يا قلب عما ما مضى ... لا بد للمحنة من مقطع

فالشاعر توجع وتحسر وبين أثر البكاء في تخفيف نار الوجد.

الاستعطاف والاسترحام والاستغاثة:

يطلق ابن رشيق على الاستعطاف الاقتضاء ويعرفه بأنه طلب حاجة وباب التلطف فيه أجود.فإن الاقتضاء الخشن ربما كان سبب المنع والحرمان وداعية القطيعة والهجران. [١] .

وغالبا ما يحتوي الاستعطاف على معاني الصفح والعفو ، وعلى الأدلة التي من شأنها تبرأة ساحة الشاعر مما اتهم به من ذنب أخذ به أو جريرة عوقب عليها ، وما من شك أن المستعطف يقدم استعطافه إلى من بيده الحل والعقد سواء كان خليفة أو ملك أو والي أو أحد المقربين إلى أحد من هؤلاء كسراة الناس ونبلائهم وكرمائهم . ولا شك أن المستعطف يسلك في استعطافه سبلا عدة لعل أهمها . إظهار ولائه ودوره البطولي الذي أبداه قبل غضب ذوي السلطة والسلطان عليه . ومنها تصوير ما لحق به من أذى السجن وحرقة الوجد ووحشة الغربة - إن كان قد سجن أو نفي- ومنها بيان ما لحق بأهله وأولاده وخاصة البنات منهم من أذى وذل وحرمان لإبعاد عائلهم إن كان قد أبعد، ومنها تصوير شماتة الأعداء لما أصابه . ومنها التنصل من الذنب وبيان أن الوشاة هم من قاموا بالوشاية والكذب حتى صار إلى ما صار إليه أمره، ومنها بيان أن رضا من بيده الأمر ومن ألحق به الأذى هو غايته وأنه راض بكل أذى ما دام ذلك يرضيه.

والاعتذار والاستعطاف باب واسع من أبواب الشعر العربي على مختلف عصوره وكان رائد هذا الفن بلا منازع النابغة الذبياني فقد فتح أمام

---

١ - العمدة في محاسن الشعر آدابه ونقده - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - دار الجيل بيروت س ١٩٧٢م ج٢ ص١٥٨

الشعراء طرقا عدة للاعتذار والاستعطاف باعتذاراته البارعة للنعمان بن المنذر .

ولم نجد للبارودي اعتذارات لذوي السلطة ولمن ألحقوا به أذى المنفى .وجل ما جاء عنه في هذا الفن هو استعطافهم واسترحامهم لكونه تقدمت به السن وهو بهذا المكان النائي رحمة ببناته اللاتي لا عائل لهن ولا وائل.

ومما تجدر الإشارة إليه أن البارودي لم يلح في استعطافه واسترحامه ولم يذل نفسه. كما أنه لم يتوجه به إلى شخص بعينه بل نراه ينادي ذوي المروءة والنجدة طالبا نصفته مذكرا إياهم بما عرف عنهم من الوفاء بالعهد ونصرة المظلوم. فنراه يقول: [١]

فيا سراة الحمى ما بال نصرتكم	ضاقت عليَ وأنتم سادة نجب؟
أضعتموني وكانت لي بكم ثقة	متى خفرتم ذمام العهد يا عرب
أليس في الحق أن يلقى النزيل بكم	أمنا إذا خاف أن ينتابه العطب ؟

فهو يبعث في نفوسهم الحمية والمروءة والنجدة تلك الصفات التي عرف بها العربي على مختلف العصور .

ونراه – وهو عزيز النفس أبيها – يحاول أن يخفف من وطأة الطلب فليس من طبعه طلب المعونة. والاستعطاف في نظره ليس من طبع الفرسان، يقول على سبيل الاستفهام التوبيخي التعجبي مكنيا عن مصر بفتاة خدر [٢]

فكيف تسلبني قلبي بلا ترة	فتاة خدر لها في الحي منتسب ؟
مرت علينا تهادي في صواحبها	كالبدر في هالة حفت به الشهب

---

١ – ديوان البارودي ج١ ص٦٣

٢ – السابق ج١ ص٦٤

تهتز من فرعها الفينان في سرق ... كسمهري له من سوسن عذب
كأن غرتها من تحت طرتها ... فجر بجانحة الظلماء منتقب
كانت لنا آية في الحسن فاحتجبت ... عنا بليل النوى والبدر يحتجب
فهل إلى نظرة يحيا بها رمق ... ذريعة تبتغيها النفس أو سبب ؟

ونراه يعقب استعطافه بتصوير حاله في المنفى وهذاما يستدعى الحنو عليه والنظر في أمره فهو غريب بمنأى ومعزل عن أحبابه لا يجد فيمن معه رفيق يشاطره وجده ويفضي إليه ببعض آلامه.كما يوضح موقفه من الثورة مبينا أنه لم يذنب ولم يقترف ما يوجب النفي وما يستحق غضب السلطة الحاكمة فكل ما هنالك أنه ذو مروءة أبي الضيم فدافع عن دينه ووطنه فهل دفاعه عنهما يعد ذنبا يدان به وينفى ؟ يقول:(١)

أبيت في غربة لا النفس راضية ... بها ولا الملتقى من شيعتي كثب
فلا رفيق تسر النفس طلعته ... ولا صديق يرى ما بي فيكتئب
ومن عجائب ما لقيت من زمني ... أني منيت بخطب أمره عجب
لم أقترف زلة تقضي علي بما ... أصبحت فيه فماذا الويل والحرب
فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ... ذنب أدان به ظلما وأغترب ؟

والبيت الأخير يحتوي على محسن بديعي رائع وهو تأكيد المدح بما يشبه الذم.

ونراه يختم القصيدة بتصوير عزة نفسه وعلوها.فهو غير نادم لما آل إليه أمره وإن كان قد سلب منه ماله ومنصبه فقد أصبح غنيا ثريا بمجده وعزه وشرفه ، ويعرض بمن كانوا سببا في نفيه من حسدة وحاقدين مبينا أن ما هو فيه ليس بدعا فقد كان له في يوسف- عليه السلام - وإخوته الأسوة حين كذب إخوته علي أبيهم وجاءوا على قميصه بدم كذب مدعين

---

١ - الديوان ج١ ص٧٣، ٧٤ ط دار العودة بيروت

أن أخاهم قد أكله الذئب وتلك بعض آثار أكله، والذئب برئ منهم ومن فريتهم، كذلك البارودي برئ من ادعاء المدعين وافتراء المفترين كبراءة الذئب من دم ابن يعقوب ، كما يظهر تجلده فما آل إليه أمره ما هو إلا سحابة صيف عما قليل ستنقشع وستصفو الليالي بعد كدرتها. يقول:[1]

فلا يظن بي الحساد مندمة ... فإنني صابر في الله محتسب
أثريت مجدا فلم أعبأ بما سلبت ... أيدي الحوادث مني فهو مكتسب
لا يخفض البؤس نفسا وهي عالية ... ولا يشيد بذكر الخامل النشب
وما أبالي ونفسي غير خاطئة ... إذا تخرص أقوام وإن كذبوا
ها ، إنها فرية قد كان باء بها ... في ثوب يوسف من قبلي دم كذب
فإن يكن ساءني دهري وغادرني ... في غربة ليس لي فيها أخ حدب
فسوف تصفوا الليالي بعد كدرتها ... وكل دور إذا ما تم ينقلب

وينادي الغاضبين عليه مسترحما مستعطفا متمنيا وعد منهم بوصل بعد قطيعة حتى يلتقي بأحبته فيسعد بلقياهم ويهنأ بحديثهم ، ويخاطب الغاضبين عليه خطاب المعاتب مبينا أن ظنه فيهم قد خاب وابتلي بما لم يكن يتوقع. يقول:[2]

يا غاضبين علينا هل إلى عدة ... بالوصل يوم أناغي فيه إقبالي
غبتم فأظلم يومي بعد فرقتكم ... وساء صنع الليالي بعد إقبال
قد كنت أحسبني منكم على ثقة ... حتى منيت بما لم يجر في بالي
لم أجن في الحب ذنبا أستحق به ... عتبا ولكنها تحريف أقوال
ومن أطاع رواة السوء نفره ... عن الصديق سماع القيل والقال
أدهى المصائب عذر قبله ثقة ... وأقبح الظلم صد بعد إقبال

---

١ - السابق ص٧٥

٢ - ديوان البارودي ج٣ ص٩٥ وما بعدها

ويتخذ الشاعر هذا الموقف الذي يستعطف خلاله أولي الأمر ليدافع عن نفسه فهو وإن كان في نظرهم متهم فقد أبت عليه حريته التي ورثها أبا عن جد أن يرضى بالهوان ويستعيض الذل بالمال فيقول:[١]

لا عيب فيَ سوى حرية ملكت ... أعنتي عن قبول الذل بالمال
تبعت خطة آبائي فسرت بها ... على وتيرة آداب وآسال
فما يمر خيال الغدر في خلدي ... ولا تلوح سمات الشر في خالي

وكلما اهتاج قلبه وبرح به الوجد نراه يصرخ مستغيثا ذوي النخوة والحمية مظهرا بعض ما يقاسيه في نفيه ،وبعض ما أصابه من جراء النفي ووقعه عليه جسديا ونفسيا فنراه يقول [٢] مشبها نفسه بطائر كسير صغير قد غال الردى أبويه فأصبح فريدا وحيدا لا راع له ولا وال في جوف بقعة من الأرض موحشة ملتفة الأغصان.

لا يستطيع انطلاقا من غيابته ... كأنما هو معقول بعقال
فذاك مثلي ولم أظلم وربتما ... فضلته بجوى حزن وإعوال
شوق ونأي وتبريح ومعتبة ... يا للحمية من غدري وإهمالي
أصبحت لا أستطيع الثوب أسحبه ... وقد أكون وضافي الدرع سربالي
ولا تكاد يدي تجري شبا قلمي ... وكان طوع بناني كل عسال

ونراه يستحث الشجعان والأحرار من بني وطنه بأن يغضبوا له ويجيروه فهم أهل لإجارة من يستجير بهم ويرى أن ليس من العدل أن يصغى الناس لسجع الحمائم ولا يصغون لما يبديه من الضجر والألم والشجو. يقول:[٣]

---

١ - السابق ص٩٨، ٩٩

٢ -السابق ج٣ ص١١٠، ١١١

٣ - ديوان البارودي ج٤ ص٣٢، ٣٣

يا جيرة الحي ما لي لا أنال بكم ... معونة وبكم في الناس يعتون ؟
ماذا عليكم وأنتم أهل بادرة ... إذا ترنم فيكم شاعر فطن ؟
أفي السوية أن يبكي الحمام ولا ... يبكي على إلفه ذو لوعة ضمن

ونجد البارودي وهو الذي برَح به الوجد وأضناه الجوى وطال به النفي يلتجئ إلى الله ويطلب المعونة منه فهو الذي بيده الملك والملكوت وهو الذي ينصر المظلوم وينتصف له من الظالم، ويدعو الله تعالى أن يفك أسره وأن يعصمه من الزلل فهو واهي القوى قليل الحيلة. يقول :[1]

سل مالك الملك فهو الآمر الناهي ... ولا تخف عاديا فالحكم لله
هو الذي ينعش المظلوم إن علقت ... به الرزايا ويجزي كل تياه
فاسجد له واقترب تبلغ بطاعته ... ما شئت في الدهر من عز ومن جاه
يا رب قد طال بي شوقي إلى وطني ... فاحلل وثاقي وألحقني بأشباهي
وامنن عليَ بفضل منك يعصمني ... من كل سوء فإني عاجز واهي
هذا دعائي وحسبي أنت من حكم ... يعنو له كل شاه أو شهنشاه [2]

---

١ - ديوان البارودي ج ٤ص ١٧٩

٢ - الشهنشاه : ملك الملوك وهي كلمة فارسية

الحكمة:

الحكمة " هي إصابة الحق بالعلم والعقل أو معرفة الموجودات وفعل الخيرات، أو معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم أو صواب الأمر وسداده أو القول الوجيز الرائع الذي يتضمن حكما صحيحا مسلما أو الكلام الذي يوافق الحق، ويقل لفظه ويجل معناه، وقوله صلى الله عليه وسلم " إن من الشعر لحكمة " أي قضية صادقة، والمثل قول محكي سائر يقصد منه تشبيه حال الذي حكى فيه بحال الذي قيل لأجله،والحكم والأمثال كثيرة في المنثور والمنظوم من الأدب العربي ، وبها يتمثل الناس وترتاح نفوسهم لها وتنشط لحفظها "[١].

وتتسع الحكمة للمثل والأدب والوعظ والنصح والإرشاد وفلسفة الحياة والموت والإيمان بالقضاء والقدر[٢]

وقد حوى ديوان البارودي العديد من الحكم والأمثال، استقاها من اطلاعه الواسع على دواوين العرب القدامى، وخبراته الواسعة بالحياة والأحياء من حوله ، ولم لا وقد تقلبت به الأحوال وأظهر له الدهر ظهر المجن.

وحكمه وأمثاله تمثل العديد من صور الحياة في مختلف جوانبها ، اسمعه يصور رأيه في الدنيا فيقول[٣]:

هي الدار ما الأنفاس إلا نهائب ... لديها وما الأجسام إلا عقائر

إذا أحسنت يوما أساءت ضحى غد ... فإحسانها سيف على الناس جائر

---

١ - ديوان البارودي ضبط علي الجارم ، محمد شفيق معروف ج ٣ص٢٢٨.

٢ - السابق ج٣ ص ٦٠٧

٣ - السابق ج٢ ص ٧٩

ويقول أيضا [١]:

وما المرء في دنياه إلا كسالك ... مناهج لا تخلو من السهل والحزن

ويقول في الأخلاق وأنها هبة من الله تعالى [٢]:

لعمرك ما الأخلاق إلا مواهب ... مقسمة بين الورى وفواضل

وما الناس إلا كادحان:فعالم ... يسير على قصد وآخر جاهل

ويصور نظرته السوداوية إلى الناس وأنه من الغبن البين أن يلتمس المرء فيهم ودا[٣]

فلا تطلبن في الناس مثقال ذرة ... من الود أم الود في الناس هابل

ويبين رأيه في الحلم فيقول[٤]:

وما الحلم عند الخطب والمرء عاجز ... بمستحسن كالحلم والمرء قادر

ويقول في أن وجه الحاقد مرآة لما يكنه من بغض وحسد[٥]:

والحقد كالنار إن أخفيته ظهرت ... منه علائم فوق الوجه كالحمم

لا يبصر الحق من جهل أحاط به ... وكيف يبصر نور الحق وهو عم

ويخاطب قلبه مسريا عنه ما ألمَ به من خطوب وفواجع قائلا[٦]:

فيا قلب صبرا إن جزعت فربما ... جرت سنحا طير الحوادث باليمن

فقد تورق الأغصان بعد ذبولها ... ويبدو ضياء البدر في ظلمة الوهن

وتتسع الحكمة عنده لتصوير إيمانه بقضاء الله وقدره، وثقته بالله عز

---

١ - ديوان البارودي ج٤ ص١٠

٢ - ديوان البارودي ج٣ ص ٦٨

٣ - السابق ج٣ ص ٦٨

٤ - السابق ج٢ص٨

٥ - من المدائح النبوية د. سعد ظلام قصيدة كشف الغمة في مدح سيد الأمة

٦ - ديوان البارودي ج٤ ص٨

وجل فيقول[١]:

يا قلب صبرا جميلا إنه قدر ... يجري على المرء من أسر وإطلاق
لابد للضيق بعد اليأس من فرج ... وكل داجية يوما لإشراق

ويقول في موضع آخر [٢]:

ولا وربك ما وجدي بمندرس ... على البعاد ولا صبري بمطواع
لكنني مالك حزمي ومنتظر ... أمرا من الله يشفي برح أوجاعي

وقد تتوالى الأمثال عنده في القصيدة الواحدة، ويأتي أكثر من بيت يمكن جريانه مجرى المثل فيقول في قصيدته طيف سميرة[٣]:

فلا يشمت الأعداء بي فلربما ... وصلت لما أرجوه مما أحاذر
فقد يستقيم الأمر بعد اعوجاجه ... وتنهض بالمرء الجدود العواثر
ولي أمل في الله تحيا به المنى ... ويشرق وجه الظن والخطب كاشر
وطيد يزل الكيد عنه وتنقضي ... مجاهدة الأيام وهو مثابر
إذا المرء لم يركن إلى الله في الذي ... يحاذره من دهره فهو خاسر
وإن هو لم يصبر على ما أصابه ... فليس له في معرض الحق ناصر
ومن لم يذق حلو الزمان ومره ... فما هو إلا طائش اللب نافر

. . . . . .

ولولا أماني النفس وهي حياتها ... لما طار لي فوق البسيطة طائر
فإن تكن الأيام فرقن بيننا ... فكل امرئ يوما إلى الله صائر

---

١ - السابق ج٢ ص ٣٢٨
٢ - السابق ج٢ ص٢٦٢
٣ - السابق ج٢ ص٨١

ويقول في أن ذا الهمة والمشرئب إلى العلياء دائما مهموم مشغول[١]:

تقل دواعي النفس وهي ضعيفة وتقوى هموم القلب وهو مغامر

ويصور مطلب الإنسان من الدنيا مبينا أنه إذا كانت غاية الإنسان منها المأكل والمشرب فقد هان الأمر ، فيقول[٢]:

إذا لم يكن إلا المعيشة مطلب فكل زهيد يمسك النفس جابر

ويبين أن على الإنسان أن يكون ثابت الجأش لا يرهب الموت لأن من خشي الردى حال دون بلوغ مرامه[٣]:

إذا كنت تخشى كل شيء من الردى فكل الذي في الكون للنفس ضائر

فمن صحة الإنسان ما فيه سقمه ومن أمنه ما فاجأته المخاطر

ويقول مبينا أن المال يجب أن يكون في الأقارب [٤]:

فلا تحسبن المال ينفع ربه إذا هو لم تحمد قراه العشائر

ويؤكد القول المأثور " على المرء أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح " فيقول[٥]:

علىَ طلاب العز من مستقره ولا ذنب لي إن عارضتني المقادر

فما كل محلول العريكة خائب ولا كل محبوك التريكة ظافر

ويؤكد قول الحق تبارك وتعالى " إنَ مع العسر يسرا " فيقول[٦]:

لابد للضيق بعد اليأس من فرج وكل داجية يوما لإشراق

---

١ - نفس المرجع والصفحة

٢ - ديوان البارودي ج٢ ص ٨٣

٣ -السابق ج٢ ص ٨٣

٤ -السابق ج٢ ص٨٥

٥ -السابق ج٢ ص ٨٤

٦ - ديوان البارودي ج٢ ص٣٢٨

والأمثلة على حكمه وأمثاله كثيرة ومتنوعة بيد أنه – كما سبق القول – لم يجدد فيها فجل ما جاء عنه إنما سبقه إليه كثير من الشعراء، وكل ما كان له هو صياغتها في شكل جديد يحمل سمته وأسلوبه.

وانظر إن شئت مزيدا من الأمثلة في هذا الموضـــوع ج٤ ص ١٠ ،١١ ،٣٧ ، ج٢ ص ٢٣٢،٣٥٨ ، ج١ ص ١٥٣ ،٧٦ ، ٧٧

العظة والنصيحة :

وتتسع الحكمة عند البارودي للوعظ والنصيحة فكثيرا ما نراه في محنة المنفى ينصح بني جنسه ويرشدهم إلى ما فيه صلاحهم ، ولم لا وهو الذي حنكته التجارب وفعلت به الحياة ما فعلت ، ذاق مرارتها وتجرع غصصها كما رتع في مرابعها الهنيئة وشرب من دنانها وجالس غانياتها وحسانها.

وتدور مواعظه ونصائحه حول التحلي بالشيم الرفيعة والتخلي عن كل ما يشين الإنسان ويحط من قدره عند الله والناس. فنراه ينصح بني جنسه بالبعد عن الخمر والإقلاع عن احتسائها لما لها من أثر خطير ضار ومن أعظم خطرها ذهابها بالعقل وأنها تجعل الإنسان جالسا بشخصه وجسده أما عقله فهو في تيه وفقد وعي من السكر كما ينصح بالرجوع إلى الله تعالى والإنابة إليه قبل أن يباغته الموت وعليه أن يعتاد الخير فالموفق من وفقه الله تعالى وتاب وأناب، كما عليه أن يجود بما حوت يده ويدخر لنفسه من المعروف والعطاء ما ينفعه يوم لا ينفع الإنسان فيه ذهب ولا فضة. يقول:[1]

دع الحميا فلابن حانتها ... من صدمة الكأس لهذم ذرب
تراه نصب العيون متكئا ... وعقله في الضلال مغترب
فبئست الخمر من مخادعة ... لسلمها في القلوب محترب
إذا تفشت بمهجة قتلت ... كما تفشي في المبرك الجرب
فتب إلى الله قبل مندمة ... تكثر فيها الهموم والكرب
واعتد على الخير فالموفق من ... هذبه الاعتياد والدرب
وجد بما قد حوت يداك فما ... ينفع ثم اللجين والغرب
فإن للدهر لو فطنت له ... قوسا من الموت سهمها غرب

---

١ - ديوان البارودي ج١ ص٨٧ ، ٨٨

وانظر إلى قوله- والبين الواضح - بين نهيه عن الخمر في الأبيات السابقة و الترغيب فيها وتصوير نشوتها وأثرها الجميل على النفس في أيام شبابه وحياته الحالية قبل منفاه في الأبيات التالية. يقول :[١]

فادرأ هموم النفس عنك إذا اعترت ... بالكأس فهي على الهموم حسام
فالعيش ليس يدوم في ألوانه ... إلا إذا دارت عليه الجام
من خمرة تذر الكبير اذ انتشى ... بعد اشتعال الشيب وهو غلام
لعب الزمان به فغادر جسمها ... شبحا تخافت دونه الأوهام
حمراء دار بها الحباب فصورت ... فلكا تحف سماءه الأجرام
لا تستقيم العين في لمعانها ... وتزل عند لقاءها الأقدام
تعشو الركاب فإن تبلج كأسها ... ساروا وإن زال الضياء أقاموا
حبست بأكلف لم يصل لفنائه ... نور ولم يسرح عليه ظلام
حتى إذا اصطفقت وطار فدامها ... وثبت فلم تنبت لها الأجسام
وقدت حميتها فلولا مزجها ... بالماء بعد الماء شب ضرام
تسم العيون بنورها لكنها ... برد على شرابها وسلام
فاصقل بها صدأ الهموم ولا تكن ... غرا تطيش بلبه الآلام

ونراه يحض على الإقدام والشجاعة وعدم الرضا بالظلم ووجوب مكافحة الطغاة كما يحض على اقتحام الأخطار لبلوغ الأوتار ويدعو إلى ركوب الأهوال في طلب المعالي والأماني، فمن هاب شوك النحل عاد ولم يجن، فإذا لم تطب الحياة للإنسان في المدن والحاضرة فعليه أن يخرج إلى الصحاري والقفار ففي سبيل الحياة الحرة الكريمة يتحمل الإنسان كل شيء. يقول:[٢]

---

١ - ديوان البارودي ج٣ ص٣٣٧

٢ - ديوان البارودي ج٤ ص ١٤

فلا تعترف بالذل خيفة نقمة ... فعيش الفتى في الذل أدهى من السجن
وكن رجلا إن سيم خسفا رمت به ... حميته بين الصوارم واللدن
فلا خير في الدنيا إذ المرء لم يعش ... مهيبا تراه العين كالنار في دغن
ولا ترهب الأخطار في طلب العلا ... فمن هاب شوك النحل عاد ولم يجن
ولولا معاناة الشدائد ما بدت ... مزايا الورى بين الشجاعة والجبن
فإن لم تجد في المدن ما شئت من قرى ... فأصحر فإن البيد خير من المدن
صحار يعيش المرء فيها بسيفه ... شديد الحميا غير مغض على دمن
وأي حياة لامرئ بين بلدة ... يظل بها بين العوائن والدخن
لعمري لكوخ من ثمام بتلعة ... أحب إلى قلبي من البيت ذي الّكن
وأطرب من ديك يصيح بكوة ... أراكية تدعو هديلا على غصن
وأحسن من دار وخيم هواؤها ... مبيتك من بحبوحة القاع في صحن
ترى كل شيء نصب عينيك ماثلا ... كأنك من دنياك في جنتي عدن
تدور جياد الخيل حولك شربا ... تجاذب أطراف الأعنة كالجن
إذا سمعت صوت الصريخ تنصبت ... فتدرك مالا تبصر العين بالأذن
فتلك لعمري عيشة بدوية ... موطأة الأكناف راسخة الركن
وما قلت إلا بعد علم أحد لي ... يقينا نفي عني مراجعة الظن

وينادي الإنسان بصيغة " يا ابن أبي" والتي تحمل معاني الرحمة والحدب والصلة والبر والشفقة، ويحثهم على الإصغاء إليه والعمل بما يمدهم به من نصيحة ويجعلوها كالقلادة في العنق، إذ هي كالدرة النفيسة يجب صيانتها والعمل بها وعلى رأس نصيحته أن لا يكون الإنسان ألد خصم ، فعليه أن يعفو ويصفح وعليه أن لا يحتقر إنسانا لفقره وفاقته، فقد يكون على فقره شهما شجاعا يئل الناس إليه وعليه أيضا ألا يرنو إلى المستحيل ولا يتطلع إلى ما ليس في مقدوره، وعليه أن يكن وسطا في

تطلعاته وألا يصدق الأخبار قبل تمحيصها والتحقق من صدقها وصحتها، كما ينصح بمداراة من يخافه وألا يغتر بمظهر الإنسان، فقد يبطن الإنسان خلاف ما يظهر فقد تلقاه في زي عابد تقي زاهد وهو في حقيقته غادر عات ظالم، وعلى الإنسان أن يتقي شر الحليم. فيقول:[1]

فيا ابن أخي والناس أبناء واحد ... تقلد وصاتي فهي لؤلؤة الفكر
إذا شئت أن تحيا سعيدا فلا تكن ... لدودا ولا تدفع يد اللين بالقصر
ولا تحتقر ذا فاقة فلربما ... لقيت به شهما يبر على المثرى
فرب فقير يملأ القلب حكمة ... ورب غني لا يريش ولا يبري
وكن وسطا لا مشرئبا إلى السها ... ولا مانعا يبغي التزلف بالصبر
فأحمد أخلاق الفتى ما تكافأت ... بمنزلة بين التواضع والكبر
ولا تعترف بالذل في طلب الغنى ... فإن الغنى في الذل شر من الفقر
وإياك والتسليم بالغيب قبل أن ... ترى حجة تجلو بها غامض الأمر
ودار الذي ترجو وتخشى وداده ... وكن من مودات القلوب على حذر
فقد يغدر الخل الوفي لهفوة ... ويحلو الرضا بعد العداوة والشر
وفي الناس من تلقاه في زى عابد ... وللغدر في أحشائه عقرب تسري
إذا أمكنته فرصة نزعت به ... إلى الشر أخلاق نبتن على غمر
ولا تحسبن الحلم يمنع أهله ... وقوع الأذى فالماء والنار من صخر
فهذي وصاتي فاحتفظ ها تفز بها ... تمنيت من نيل السعادة في الدهر

وفي موطن تذكره لشبابه الغابر وانصرام حداثته ينصح بعدم تحسر الإنسان على ما فات ويعزي المتحسر ويصبره بأن كل شيء إلى ذهاب ، كما ينصحه بعدم الانخداع بالدنيا وضرورة الحذر منها فهي لا تدوم على حال ، وعليه أن يكون عاقلا لا يتعلق بمحال ولا يغتر بحسن حال لأن

---

١ - ديوان البارودي ج٢ ص ١٥ ،١٦

الأيام دول فالدنيا إذا أحسنت يوما أساءت ضحى غد. يقول:[١]

ذكر الصبا فبكى ولات أمان ... من بعد ما ولى به الملوان
هيهات يرجع فائت لعبت به ... عصر أوائل أردفت بثواني
هون عليك فكل شيء ذاهب ... والدهر مصدر عزة وهوان
واحذر من الدنيا إذا هي أقبلت ... بالبشر فهي كثيرة الألوان
ودع التعلق بالمحال فمن يعش ... في غبطة يرمى بها الرجوان
لا تأملن بكل عام مقبل ... خيرا فكل الدهر عام جوان
والدهر أيام تبيد صروفها ... وتشيد فهي هوادم ويوان

والأبيات فيها تزهيد في الدنيا وتذكير بالموت.

ونراه - في موضع حضه على مقاومة الظلم ودفع يد الظالمين الجائرين - يهجو السادة ومن بيدهم مقاليد الحكم ويبين أنهم يوصفون بالخسة ووضاعة الشأن ، وقد وسدوا رغم خساستهم ودناءة شأنهم، فقد انقلبت موازين الحكم وأصبح البغاث بأرضنا يستنسر ،يقول[٢]:

أبى الدهر إلا أن يسود وضيعه ... ويملك أعناق المطالب وغده
تداعت لدرك الثأر فينا ثعالة ... ونامت على طول الوتيرة أسده
فحتام نسري في دياجر محنة ... يضيق بها عن صحبه السيف غمده
إذا المرء لم يدفع يد الجور إن سطت ... عليه فلا يأسف إذا ضاع مجده
ومن ذل خوف الموت كانت حياته ... أضر عليه من حمام يؤده
وأقتل داء رؤية العين ظالما ... يسئ ويتلى في المحافل حمده
علام يعيش المرء في الدهر خاملا ؟ ... أيفرح في الدنيا بيوم بعده
يرى الضيم يغشاه فيلتذ وقعه ... كذى جرب يلتذ بالحك جلده

---

١ - ديوان البارودي ج٤ ص١٤٣

٢ - ديوان البارودي ج١ ص ١٤

الغزل:

تغزل البارودي في منفاه غزلا ليس غايته استمالة المحبوبة أو تعبير عن امتلاك هوى بل حب غايته التسرية عن قلبه المكلوم، وتقليدا متبعا في استهلال قصائده وتذكرا لماضيه الحالي مع الغانيات بأرض النيل وملاعب لهوه وصباه، فنراه يخاطب المحبوبة مبينا سهم لحاظها الفتاك ناهيا إياها عن هجره فهو متيم قد برحه الجوى، وليت من يلمه في هواها أن يكف عن لومه، وإذا كان اللائم قلبه خاليا فماذا عليَ أن أهوى وأهيم شوقا بمن أحب فالحب ذو سلطان قوي بيد أنه لم يأت فيه ما يلام عليه . يقول:[١]

بناظرك الفتان آمنت بالسحر ... وهل بعد إيمان الصبابة من كفر؟

فلا تعتمد بالهجر قتل متيم ... فإن المنايا لا تزيد عن الهجر

فلولاك ما حل الهوى قيد مدمعي ... ولا شب نيران اللواعج في صدري

وإني علي ما كان منك لصابر ... لعلمي أن الفوز من ثمر الصبر

فليت الذي أهدي الملامة في الهوى ... توسم خيرا أو تكلم عن خبر

ونراه يتغزل بمحبوبته وما تزدان به من قوام رشيق وبياض ناصع جميل، ترفل في ثياب قشيبة باهرة ، كانت آية في الحسن والجمال فاحتجبت عنه. والبارودي يكني بفتاته عن محبوبته الأولى مصر فيصورها فتاة غانية مصونة قد استولت على قلبه وسلبته لبَه بلا ذنب ولا ترة ، وهي بالنسبة لبلاد الدنيا كالبدر وما سواها شهب ونجوم. فيقول:[٢]

فكيف تسلبني قلبي بلا ترة ... فتاة خدر لها في الحي منتسب

مرت علينا تهادي في صواحبها ... كالبدر في هالة حفت به الشهب

---

١ - ديوان البارودي جـ٢ صـ١٢وما بعدها

٢ - ديوان البارودي ج١ ص٦٤ ، ٦٥

تهتز من فرعها الفينان في سرق ... كسمهري له من سوسن عزب
كأن غرتها من تحت طرتها ... فجر بجانحة الظلماء منتقب
كانت لنا آية في الحسن فاحتجبت ... عنا بليل النوى والبدر يحتجب
فهل إلى نظرة يحيا بها رمق ... ذريعة تبتغيها النفس أو سبب

وفي موضع آخر نجده يتغزل بمحبوبته " لمياء " ويصفها وصفا حسيا ويعقد حوارا جميلا بينه وبين نفسه فيقول:(١)

فلست بناس ليلة سلفت لنا ... بواديه والدنيا تغر بما تسدي
إذ العيش ريان الأماليد والهوى ... جديد وإذ " لمياء " صافية الود (٢)
منعمة للبدر ما في قناعها ... وللغصن ما دارت به عقدة البند (٣)
سبتني بعينيها وقالت لتربها ... ألا ماهذا الغر يتبعني قصدي؟ (٤)
ولم تدر ذات الخال والحب فاضح ... بأن الذي أخفيه غير الذي أبدي
حنانيك إن الرأي حار دليله ... فضل وعاد الهزل فيك إلى الجد (٥)
فلا تسألي مني الزيادة في الهوى ... رويدا فهذا الوجد آخر ما عندي
وها أنا منقاد كما حكم الهوى ... لأمرك فأخشى حرمة الله والجد
فلو قلت قم فاصعد إلى رأس شاهق ... وألق إذا أشرفت نفسك للوهد
لألقيتها طوعا لعلك بعدها ... تقولين حيا الله عهدك من عهد
سجية نفس لا تخون خليلها ... ولا تركب الأهوال إلا على عمد

وتراه يتغزل بمحبوبته واصفا جمالها الأخاذ ليبين أن هـذا الجمـال

---

١ - ديوان البارودي ج١ ص ٢١١، ٢١٢

٢ - الريان : ضد العطشان الأماليد : جمع إمليد أو أملود وهو الغض الناعم اللين

٣ - البند : الحزام . وكنى بما دارت به عقدة البند عن الخصر وبما في القناع عن الوجه

٤ - الغر : الشاب لا تجربة له كالغرير

٥ - حنانيك : ترحمي علي مرة بعد مرة

الأخاذ كان وراء لوعته وشدة شوقه وحنينه فيقول:[١]

ودون ما تبتغيه النفس من أرب ... بيداء تصهل في أرجائها الحصن
وفي الأكلة آرام تطيف بها ... أسد براثنها الخطية اللدن
من كل حوراء مثل الظبي لو نظرت ... لعابد لشجاه اللهو والددن[٢]
في نشوة الراح من ألحاظها أثر ... وفي الجآذر من ألفاظها غنن
دقت وجلت ولانت وهي قاسية ... كذاك حد المواضي لين خشن
طوت بهن النوى عني بدور دجى ... لا يستبين لعيني بعدها سنن
أتبعتهم نظرات كلما بلغت ... أخرى الحمول ثناها مدمع هتن

والأبيات يغلب عليها سمة البداوة والقدم وكأننا نقرأ لشاعر من شعراء الجاهلية ويقول[٣] متغزلا في مستهل قصيدة يمدح فيها النبي ﷺ:

يا صارم اللحظ من أغراك بالمهج؟ ... حتى فتكت بها ظلما بلا حرج
مازال يخدع نفسي وهي لاهية ... حتى أصاب سواد القلب بالدعج
طرف لو أن الظبا كانت كلحظته ... يوم الكريهة ما أبقت على ودج
أوحى إلي القلب فانقادت أزمته ... طوعا إليه،وخلاني ولم يعج
فكيف لي بتلافيه؟ وقد علقت ... به حبائل ذاك الشادن الغنج
كادت تذيب فؤادي نار لوعته ... لو لم أكن من مسيل الدمع في لجج
لولا الفواتن من غزلان كاظمة ... ما كان للحب سلطان علي المهج
فهل إلى صلة من غادر عدة ... تشفي تباريح قلب بالفراق شج

والأمثلة على غزله التقليدي كثيرة ومنتشرة في ثنايا موضوعات شعره.

---

١ - السابق ج٤ ص ٢٨
٢ - الددن : اللهو واللعب
٣ - ديوان البارودي جـ١ صـ ١٠٠

الفصل الثاني

الدراسة الفنية

من أهم سمات قصيدة المنفى لدى البارودي

أولا : من حيث استهلالها ونظامها الفني خلوها من المقدمات التقليدية للقصيدة العربية ومباشرتها لغرضها الأساسي إلا في القليل النادر: وهـذه المباشرة دليل صدق الشاعر مع نفسه وتأكيد لجسم الخطب ورزء المصيبة فهذه المباشرة لها دلالتها على الحالة النفسية والانعكاسات الوجدانية ، وحتى القصائد القليلة التي ابتدأها البارودي بالغزل لا نرى فيها غزلا حقيقيا بل " هو رمز لعواطف وآلام شتى تعتلج في داخل الشاعر وأن الشاعر قد اتخـذ من الغزل التقليدي هنا تعبيرا عن آلام حقيقية امتلأ بها وجدانه "[١]

وكما نجد من حسن اسـتهلال فـي قصـيدة البـارودي ومناسـبتها لموضوعه نجد عنه حسن انتهاء إذ ينهي قصيدته غالبا بما يعبر عن شجونه وآلامه ووجده واغترابه وهي غالبا تنتهي بالحكمة أو ما يحمل النفس على التصبر والتأسي فبعد العسر يسر وكل ما هو فيه سحابة صيف عن قليـل ستنقشع. نراه يقول في ختام قصيدته طيف سميرة [٢]

يا قلب صبرا جميلا إنه قدر ... يجري على المرء من أسر وإطلاق
لابد للضيق بعد اليأس من فرج ... وكل داجية يوما لإشراق

ويقول في نهاية قصيدة أخرى يستعطف بها ولاة الأمر:

فإن يكن ساءني دهري وغادرني ... في غربة ليس لي فيها أخ حدب
فسوف تصفوا الليالي بعد كدرها ... وكل دور إذا ما تم ينقلب

ثانيا: كونها قصيدة وجدان ومشاعر بالدرجة الأولى فجل قصائده ما هـي إلا إفضاء بما في نفس الشاعر والتعبير عن خلجاته ووجداناته ومشاعره تجـاه

---

١ - شعر الأسر والسجن بين أبي فراس الوجداني والمعتمد بن عباد. مصطفى مصطفى عطا

٢ - ديوان البارودي ج٢ ص٣٢٨

مجتمع المنفى من جهة ووطنه الذي نفاه من جهة أخرى فهي تعبر عن المفارقات التي قد تحدث للمرء وتقلب الأحوال بالناس من السرور إلى الحزن ومن السعادة إلى الشقاوة والمستقرئ لهذا البحث يجد هذه السمة جلية واضحة في جل قصائده فنراه مفتخرا وراثيا ومشتاقا وشاكيا وواصفا.

ثالثا :غلبة نظام القصيدة عليها فتكاد تخلو قصائده في منفاه من المقطوعات فأغلبها قصائد تربو على الثلاثين بيتا وهذا دليل على طول نفسه في الشعر وعلو كعبه وموهبة حقيقية وقدرة مواتية على القريض.

رابعا: خلوها – إذا استثنينا قصائد الرثاء وبعض قصائد الوصف – من الوحدة الموضوعية فالقصيدة عنده تضم أكثر من غرض شعري فإذا ما حن وصف وافتخر وشكى وتحسر إلى آخره وكل هذا في قصيدة واحدة وانظر إن شئت إلى قصيدته في طيف سميرة أو قصيدته التي يستهلها بقوله:

ترحل من وادي الأراكة بالوجد فبات سقيما لا يعيد ولا يبدي

وقصيدته في وصف روضة برديا. وقصيدته التي مطلعها:

لبيك يا داعي الأشواق من داعي أسمعت قلبي وإن أخطأت أسماعي

قد حوت أكثر من غرض شعري فقد وصف فيها شوقه وحنينه إلى الأهل والوطن، وتحسر على ما كان له بمصر من عز وجاه وسطوة. ووصف منفاه ، وتوجع وشكى . وقد ربط بين أغراض القصيدة ومعانيها المتعددة برباط نفسي محكم البناء عراه شعور جارف بالوحدة والاغتراب لذا حن وأنّ وشكى وتوجع وكان في كل ذلك قوي العاطفة متسق الشعور.

أما الوحدة العضوية والتي بيّن د محمد غنيمي هلال أن المقصود بها " وحدة الموضوع ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع وما يستلزم ذلك من ترتيب الصور والأفكار ترتيبا به تتقدم القصيدة شيئا ،حتى تنتهي إلى

خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور على أن تكون أجـزاء القصـيدة كالبيئة الحية لكل جزء وظيفته فيها ويؤدي بعضها إلى بعض عن طريـق التسلسل في التفكير والمشاعر [١] فلم تتحقق إلا في القصائد التي تحققـت فيها الوحدة الموضوعية وحسب.

ورغم خلو قصيدة المنفى لدى البارودي من الوحدة الموضوعية نجد فيها وحدة فنيه محكمة منبثقة عن وحدة المشاعر والأحاسيس ووحدة الأثـر الفنـي والتي تستلزم قوة ترابط الأفكار وتسلسلها وتماسك أجزاء القصيدة ، وهذا بـلا شك جدير بتحقيق الوحدة العضوية في القصـيدة حتـى لـو كانـت متعـددة الموضوع. " إن تحقيق ذلك كله في بناء القصيدة تعوضه ما قـد يكـون قـد أضعف من تعدد الأغراض حيث تربط بين هذه الأجزاء برباط نفسـي واحـد يذيب هذه الفواصل بين الأغراض ويشيع بينها روح الوحدة والائتلاف" [٢]

وعلى ذلك فالوحدة الفنية قد تحققت في جل شعر المنفى لدى الشاعر ولا غرو فقد عانى الشاعر تجربة المنفى وذاق خلالها حرق الوجد ووحشة الوطن والبعد عن الأهل والأصحاب وعبر عن كل ذلك بصـدق إحسـاس وقوة عاطفة ومشاعر دافقة حانية تجاه بناته وزوجه وقد عبر كثيـرا عـن اغترابه وعدم انسجامه مع من معه سواء من بني وطنه أو من أبناء منفـاه فتضجر وتألم.

---

١ - النقد الأدبي الحديث دار الثقافة بيروت ١٩٧٣م ص ٣٩٤

٢ - عناصر الإبداع في رائية أبي فراس .د محمد عارف محمود مطبعة الأمانة بالقـاهرة الأولى ١٩٨٨ م ص٧٥

العاطفة:

نعني بالعاطفة الحافز والمحرك والدافع لقول الشعر والعاطفة كما قال عنها الأستاذ/ أحمد أمين هي التي تمنح الأدب صفة الخلود.

وقد فطن نقاد الأدب قديما إلى دور العاطفة باعتبارها مفجر ينبوع الشعر لدى الشاعر فهاهو ابن رشيق قد حصر الحوافز لقول الشعر في الرغبة والرهبة والطرب والغضب فمع الرغبة يكون المدح والشكر ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع [١]

وشعر المنفى من أصدق أنواع الشعر عاطفة إذ أن شاعر المنفى تحركه عاطفة جامحة صادقة لا زيف فيها والعاطفة الصادقة كما عرفها الأستاذ/ أحمد الشايب التي تنبعث عن سبب صحيح غير زائف ولا مصطنع [٢]

ولا شك أن محنة المنفى من أصدق التجارب والتي عبر خلالها الشاعر عن مشاعره تجاه وطنه وأناسه فإذا مدح فمديحه خال من الرياء وإذا تشوق فعن موجده حقيقية وحب ممض وشوق جارف إلى الوطن الذي ترعرع بين أحضانه ونبت بين أغصانه وإذا رثى فعن حزن عميق حار يدمي الفؤاد ويسكب الدمع وليس وراء فقد الزوجة والأبناء من حافز ودافع إلى الحزن والجزع والتفجع والأنين .

وقد سبقت الإشارة إلى مراثيه الحارة لزوجه وولده وأصدقائه والتي يشعر خلالها القارئ أنها تخرج من نفس مكلومة وقلب حزين محرّق فمن يقرأ قصيدته في رثاء زوجه عديلة بكن والتي بدأها بقوله:

---

١ - العمدة ج١ ص١٢٠

٢ - أصول النقد الأدبي نهضة مصر بالفجالة - ط العاشرة ١٩٩٩م ص ١٩٠

أيد المنون قدحت أي زناد وأطرت أية شعلة بفؤاد

يقف على مدى الفجيعة التي أصابته، ويشعر أن القصيدة عبارة عن جراح تنطق ومشاعر أسى تعبر، ووجدان يئن ويشكو، وشعور دافق يصرخ في سماء الغربة وفضاء سرنديب، ومشاعر متداخلة يشكلها الحب والحزن، وعتاب الدهر وشفقة على الأبناء وذكريات حالمة حالية، كل هذه المعاني تبلورت في إخراج تجربة شعرية من أصدق التجارب الإنسانية التي عرفتها البشرية، فانظر إلى قوله معبرا عن وقع الحدث عليه.

ما كنت أحسبني أراع لحادث حتى منيت به فأوهن آدي
أبلتني الحسرات حتى لم يكد جسمي يلوح لأعين العواد
أستنجد الزفرات وهي لوافح وأسفه العبرات وهي بوادي
لا لوعتي تدع الفؤاد ولا يدي تقوى على رد الحبيب الغادي

وانظر إليه ثانية معبرا عن جرحه وفجيعته:

ولهى عليك مصاحب لمسرتي والدمع فيك ملازم لوسادي
فإذا انتبهت فأنت أول ذكرتي وإذا أويت فأنت آخر زادي
أمسيت بعدك عبرة لذوي الأسى في يوم كل مصيبة وحداد
متخشعا أمشي الضراء كأنني أخشى الفجاءة من حيال أعادي
ما بين حزن باطن أكل الحشا بلهيب سورته وسقم بادي

فهل بعد هذه الصورة المعبرة عن التجربة الحسية النابضة بكل معاني الأسى من صدق ؟

وكذلك قصيدته طيف سميرة والتي مطلعها :

تأدب طيف من سميرة زائر وما الطيف إلا ما جنته السرائر

فقد عبر خلالها عن أبوة حانية وعواطف ملؤها الحدب والحب لأبنائه، ورعايته لهم وحرصه الدائم على تحقيق الحياة الكريمة لهم، والتي

فضلن بها على أقرانهم فكن كأنجم الثريا.

وتمتزج عاطفة الحزن عنده بالعاطفة الدينية أحيانا خاصة في مراثيه ففي قصيدته:

أيد المنون قدحت أي زناد وأطرت أية شعلة بفؤادي

والتي رثى بها زوجته " عديلة يكن " نراه بعد أن صور جزعه وفجيعته لفقدها وشدة وجده عليها يلجأ إلى الله لائذا متأسيا متصبرا مبينا أن ما أصابه قد أصاب الكثيرين غيره وما دام الإنسان مصيره الموت ، فهذا أدعى للتأسي والتصبر ودعاء الله أن يغفر لميته فهو المجيب لمن دعاه. يقول:

أمم خلت فاستعجمت أخبارها حتى غدت مجهولة الإسناد

فعلام يخشى المرء صرعة يومه؟ أوليس أن حياته لنفاد

تعس امرؤ نسى المعاد وما درى أن المنون إليه بالمرصاد

فاستهد يا"محمود "ربك والتمس منه المعونة فهو نعم الهادي

واسأله مغفرةً لمن حل الثرى بالأمس فهو مجيب كل منادى

ويخفف من غلواء الخطب عليه يقينه بيوم البعث والحشر وتوقعه لقيا هذه الزوجة الرؤوم والأم الحنون يوم القيامة . يقول :

قد كدت أقضي حسرة لو لم أكن متوقعا لقياك يوم معادي

فكان الإبعاد عن الوطن رأس البواعث، ومفجّر ينبوع العواطف الصادقة الدافقة، فطالما وجدناه متشوقا حانا لحياته الحالية في كنف وطنه وهو يرقى المناصب، ويصل إلى ذروة المجد والرفعة. وبينا يرى نفسه في سماء المجد – وعلى غرة منه يرى نفسه يهوى من مربئه العالي، ومن سماوة مجده إلى الإبعاد والنفي والنسيان، طيلة السبعة عشر عاما . فأكثر من الحنين والأنين والشكوى والاستعطاف والدعاء على نحو ما مر في ثنايا هذا البحث.

الصورة في شعر البارودي

تعني الصورة الفنية في الشعر " مجموعة الوسائل التي يحاول بها الأديب نقل فكرته وعاطفته معا إلى قرائه وسامعيه "[١]

ولعل أهميتها تكمن في كونها " تعبر عن نفسية الشاعر وهي تشبه الصورة التي تتراءى في الأحلام ، كما أنها تعين على كشف معنى أعمق من المعنى الظاهري للقصيدة " [٢]

وللبارودي في منفاه صور حية نابضة ناطقة بكل ما تجيش به نفسه من انفعالات وأحاسيس .ولعل أهم ما توسم به صوره في منفاه أنها محاطة بسياج من الحزن والأسى والألم والأنين فإذا استثنينا وصفه لبعض رياض كندي وسرنديب وصوره في الفخر تراها قاتمة سوداء ..فله في منفاه العديد من الصور الأخاذة التي تحرك المشاعر وتحمل النفس على التأثر والتجاوب مع الشاعر ومشاعره والانفعال بما انفعل به وهي تنقل لنا شعوره بكل شفافية ودون مواربة وهي في مجملها تفيض بالحسرة واللوعة واللهفة ....وتتنوع تنوعا واسعا لما أثارت الغربة في نفسه من خواطر وأثار الحنين من معان .

يقول د. شوقي ضيف عن روعته التصويرية[٣] " لا يروعنا البارودي بصدقه في وصف أحاسيسه وما مر به من أحداث الحياة وأحاط به من واقعها في بيئته وغير بيئته فحسب ، بل يروعنا أيضا بملكته الخيالية التي أتاحت له تصوير المشاهد الكبيرة تصويرا ينبض بالحركة والحيوية الدافقة ولا نقصد

---

١ - أصول النقد الأدبي - أحمد الشايب - مكتبة نهضة مصر - العاشرة ١٩٩٩م ص ٢٤٢

٢ - فن الشعر - إحسان عباس - دار الشروق طبعة ١٩٩٢م ص٢٠

٣ - البارودي رائد الشعر الحديث ص١٨٨

المشاهد الحسية وحدها ، بل نقصد أيضا المشاهد النفسية ، إذ استطاع دائمـــا أن يرسم ما يجري من حوله وفي نفسه رسما تخطيطيا دقيقا " .

وقد جسم حسراته ولوعاته في العديد من الصور منها وصف الوحشة والغربة والوحدة ومنها تصوير حنينه إلى أهله ووطنه ومنها رثائه لزوجته وأصدقائه ومنها تحسره على شبابه الغابر .

فمن قصائده التي تفيض بالحسرة وتصور حاله في منفـــاه تصـــويرا دقيقا حيا قصيدته التي استهلها بقوله:

أين أيام لذتي وشبابي ... أتراها تعود بعد الذهاب

وفيها يقول :

يا نديمي من سرنديب كفا ... عن ملامي وخلياني لما بي
كيف لا أندب الشباب وقد أص ... بحت كهلا في محنة واغتراب (١)
أخلق الشيب جدتي وكساني ... خلعة منه رثة الجلباب (٢)
ولوى شعر حاجتي على عي ... ني حتى أطل كالهداب
لا أرى الشي حين يسنح إلا ... كخيال كأنني في ضباب
وإذا ما دعيت صرت كأني ... أسمع الصوت من وراء حجاب
كلما رمت نهضة أقعدتني ... ونية لا تقلها أعصابي
لم تدع صولة الحوادث مني ... غير أشلاء همة في ثياب

فقد انصرم شبابه وأخذت جوارحه في الضـــعف شـــيئا فشـــيئا - فالصورة رغم حقيقتها وتصويرها لحاله وما آلت إليه حواســـه وجوارحـــه صورة أخاذة مؤثرة ، ناقلة شعوره النفسي الأليم الذي انتابه بسبب ضـــعف

---

١ - الكهل :من وخطه الشيب أي خالطه

٢ - الخلعة: ما تمنحه غيرك من الثياب

حواسه، حتى أنه ليطلب من نديمه أن يتركه لهمه ولندبة شبابه الذي انصرم وهو بهذا المنفى النائي، وقد رسم البارودي لنفسه وحاله في منفاه صورة فنيه حسية حية شكلتها عدة صور جزئية، فقد صور الشيب وقد هجم على شبابه وكساه خلعة بالية رثة، وليس أدل على ذلك من شعر حاجبيه الذي رآه وقد تدلى على عينيه نتيجة ضعفه وشدة هزاله ونحول جسده، وقد غشيت عيناه وضعف بصره فأصبح لا يرى الشيء واضحا كما كان يراه قبل بارز الملامح، بل يراه مشوشا ،كأنه يرى خيال شيء وليس بشيء، وكأنه في جو مضبب يعوق الرؤيا ويحول دون وضوح معالم الشيء، وليس البصر ما وهي فحسب، بل إن سمعه أيضا قد ضعف فتراه يسمع الصوت ضعيفا غير واضح، وكأنه يحول بينه وبين مصدر الصوت جدار، وها هي قواه الأخرى أيضا قد تسرب إليها الضعف فقد اختلت أعصابه فكلما أراد الوقوف من جلوس أقعده الضعف والوهن.

ولم يفت البارودي أن يوضح أن فواجع الدهر وحوادثه وراء كل ضعف أصابه، وقد عكست الكلمات" كهلا ، لوى . خيال. ضباب. أقعدني. ونية. أشلاء. حالة الضعف والوهن التي صار إليها، وكان التشبيه والاستعارة عدة الشاعر مع هذه الكلمات السابقة في إيضاح الصورة الكلية وبلورتها في ذهن السامع.

وانظر إليه وهو يصور موقف الوداع وانعكاسه على نفسه [١]:

إن قلبي وهو الأبيّ دهته ... فرقة صيرته نهبا مشاعا

لا ترى غير واقف يسفح الدم ... ع وساه لا يستطيع زماعا

وصلة قربت بعادا وبين ... من حبيب أجد فيه اجتماعا

---

١ - ديوان البارودي ج٢ ص٢٣٠

كنت أخشى الوداع حتى إذا ما فارقوني أمسيت أرجو الوداعا

والبيت الأخير يعكس مدى ما وصل إليه البارودي في منفاه من وحشة وشعور جامح بالغربة ومدى الشوق إلى الوطن والخلان

وانظر إليه ثالثة وهو يصور حاله في منفاه وحيدا منفردا في قنة ذاهبة في السماء ويشبه نفسه وهو يعاني الوحشة والوحدة والضعف وعوامل الطبيعة القاسية من اشتداد البرودة وهطل السماء وقوة الرياح وشدتها بفرخ طير ضعيف لا حول له ولا طول قد فقد أبويه وأصبح يعاني الحاجة والعوز والوحدة والخوف. يقول[1]:

فلو تراني وبردي بالندى لثق لخلتني فرخ طير بين أدغال
غال الردى أبويه ، فهو منقطع في جوف غيناء لا راع ولا والي
أزيغب الرأس لم يبدو الشكير به ولم يصن نفسه من كيد مغتال
كأنه كرة ملساء من أدم خفية الدرز قد علت بجريال
يظل في نصب حران مرتقبا نقع الصدى بين أسحار وآصال
يكاد صوت البزاة القمر يقذفه من وكره بين هابي الترب جوال
لا يستطيع انطلاقا من غيابته كأنما هو معقول بعقال
فذاك مثلي ولم أظلم وربتما فضلته بجوى حزن وإعوال

وقد استعان البارودي بالعديد من الصور البيانية والبديعية في شعره، وذلك لتتضح الصورة الكلية أو الجزئية في ذهن السامع، وقد كان التشبيه من بين فنون البيان أكثر شيوعا ودورانا في شعره، ومن الملاحظ أن صورة التشبيه عنده غالبا ما تكون منتزعه من حياة الجندية والفروسية، والتي طالما مارسها وخاض غمارها وأبلى فيها بلاء حسنا، أو مما استقاه

---

١ - ديوان البارودي ج٣ ص١٠٦

من الشعر القديم أو من الحياة الحضارية من حوله.

يقول مفتخرا بحسن منطقه وبلاغة قوله، مشبها لسانه في إصابته وبلاغة مقصده بحد السيف:

وكيف يغيب القول عني وفي فمي لسان كغرب المشرفي ذليق

ويقول في وصف البروق:

إذا البروق ازمهرت خلت ذروتها شهما تدرع من تبر بأدراع

فقد شبه البروق في شدة لمعانها وبريقها بفارس كميت لبس درعا من ذهب.

ويقول أيضا:

حبذا النيل حين يجري فيبدي رونق السيف واهتزاز الفرند

ويقول أيضا:

زعانف هدا جون في عرصاتهم كخيط نعام بين جرداء صفصف

ويقول مشبها الدوح يحوي الحمائم بقصر يحوي النساء الحسان المغنيات:

كأنما الدوح قصر والحمام به سرب من الغيد بالألحان تبتده

ويقول جامعا أكثر من تشبيه في بيت واحد:

وخمائل أظلالهن لفيفة ونسائم أنفاسهن عبير

فالقصر در والجداول فضة والزهر تبر والنبات حرير

ويشبه الطائر الغرد حين يشدو بالدوح بمخمور أسكرته الخمر فيقول:

كأنما الأورق الغريد حين شدا في سربة الإنس فيها شارب فكه

ويشبه في موضوع آخر روضة نزل بها بجنة الفردوس فيقول:

دعاني إلى غي الصبا بعدما مضى مكان كفردوس الجنان أنيق

ومن استعاراته قوله مفتخرا [١]:

أثريت مجدا فلم أعبأ بما سلبت أيدي الحوادث مني فهو مكتسب

ويقول في مدح الأمير شكيب أرسلان :

أحيا رميم الشعر بعد هموده وأعاد للأيام عصر الأصمعي

ويقول أيضا في مدح سيد من سادات الهند [٢]:

أديب له في جنة الشعر دوحة أفاءت على الدنيا بأجمل زخرف

إذا نورت أفنانها غب ديمة من الفكر جاءت بالبديع المفوف

ويقول في رثاء زوجته مخاطبا المنون:

أيد المنون قدحت أي زناد وأطرت أية شعلة بفؤاد

ومن استعاراته أيضا قوله مفتخرا [٣]:

ملكت عقاب الملك وهي كسيرة وغادرتها في وكرها وهي طائر

ويقول مكنيا عن القلم في معرض مديحه لسيد من سادات الهند [٤]:

ولكنني لبيت دعوة نظمه بأسمر مشقوق اللسان محرف

إذا حركته راحتي فوق مهرق بذكر علاه بذ كل مثقف

ويقول مادحا الشيخ حسين المرصفي[٥]:

طرحت بني الأيام لما عرفته وما الناس عن البحث إلا مخايل

ويقول مكنيا عن مكانة الشيخ حسين المرصفي في مرثيته له:

---

١ - ديوان البارودي العودة ص٧٥

٢ - ديوان البارودي ج٢ ص٢٦٩

٣ - ديوان البارودي ج٢ ص ٨٤

٤ - الديوان ج٢ ص ٢٦٨

٥- ديوان البارودي ج٣ ص٧٠

وما كان إلا كوكبا حل بالثرى ... لوقت فلما تم شال ضياؤه
نضا عنه أثواب الفناء ورفرفت ... إلى الفلك الأعلى به مضواؤه
فأصبح في لج من النور سابحا ... سواحله مجهولة وفضاؤه
تجرد من غمد الحوادث ناصعا ... وما السيف إلا أثره ومضاؤه

ويقول مكنيا عن ضعفه [١]

أصبحت لا أستطيع الثوب أسحبه ... وقد أكون وضافي الدرع سربالي
ولاتكاد يدي تجري شبا قلمي ... وكان طوع بناني كل عسال

ويقول أيضا [٢]

لم تدع صولة الحوادث مني ... غير أشلاء همة في ثيابي

وكان الطباق أكثر الألوان البديعية دورانا في شعره ومن الطباق عنده قوله [٣]:

لا يخفض البؤس نفسا وهي عالية ... ولا يشيد بذكر الخامل النشب

ومن الطباق نجد قوله أيضا [٤]:

رعيا لها من بلدة لو أن لي ... فيها أخا يرعى زمام إخائي
ضنت بها نفسي كما سمحت بها ... فانظر لقرب ضنانتي وسخائي
ومن العجائب أنني من غربتي ... ونعيمها في شدة ورخاء

ونجد المقابلة في قوله :[٥]

فقد يستجم المال والمجد غائب ... وقد لا يكون المال و المجد حاضر

---

١ - ديوان البارودي ج٣ ص ١٠٣
٢ - ديوان البارودي ج١ ص٥٦
٣ - ديوان البارودي دار العودة - بيروت ص٧٥
٤ - ج١ المقدمة بخط المؤلفص٤٢
٥ - ديوان البارودي ج٢ ص٨٤

ومن المقابلة قوله :

فما كل محلول العريكة خائب ولا كل محبوك التريكة ظافر

فلا أنا إن أدناني المجد باسم ولا أنا إن أقصاني العدم باسر

وقوله:

فحسرة بعدي عن حبيب مصادق كفرحة بعدي عن عدو مماذق

ويقول في موضع آخر [١]:

بلوت دهري فما أحمدت سيرته في سابق من لياليه ولا تالي

حلبت شطريه من يسر ومعسرة وذقت طعميه من خصب وإمحال

فما أسفت لبؤس بعد مقدرة ولا فرحت بوفر بعد إقلال

ومن الترصيع[٢] قوله في مدح الأمير شكيب أرسلان [٣]:

هو ذلك الشهم الذي بلغت به	مسعاته أمد السماك الأرفع
نبراس داجية وعقلة شارد	وخطيب أندية وفارس مجمع

ويقول في موضع آخر[٤]:

فالخير منقبض والشر منبسط والجهل منتشر والعلم مدفن

ويقول أيضا [٥]:

فالنور منقبض ، والظل منبسط والطير منشرح والجو مدله

وانظر إلى ج٢ ص٣٢٤ ديوان البارودي بيروت ص١٦٩

---

١ - ديوان البارودي ج٣ ص١٠٠

٢ - يقصد بالترصيع تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به أو من جنس واحد في التصريف انظر أسس النقد الأدبي عند العرب نهضة مصر ١٩٧٩م ص٣٣٤

٣ - ديوان البارودي ج٢ ص٨٦ ،٨٧

٤ - ديوان البارودي ج٤ ص٤٠

٥ - ديوان البارودي ج٤ ص١٧١

ومن الجدير بالذكر أن البديع جاء عند البارودي سمحا طبيعيا غير متكلف أو مستكره ، لذا حسن في موقعه وحسن وقعه كذلك على السمع والنفس ، وخرج من نوطة العيب والكلفة فهو لم يتعهده ولم يقصده لذاته ولم يتخذه غاية.

يقول الآمدي[١]:" إن الشاعر قد يعاب أشد العيب إذا قصد بالصنعة سائر شعره وبالإبداع جميع فنونه فإن تلك مجاهدة للطبع ،ومغالبة للقريحة مخرجة سهل التأليف إلى سوء التكليف وشدة التعمل ..... لأن لكل شيء حدا إذا تجاوزه المتجاوز سمي مفرطا ، وما وقع الإفراط في شيء إلا شانه وأحال إلى الفساد صحته وإلى القبيح حسنه وبهاءه ".

المبالغة :

احتوى شعر المنفى عند البارودي على العديد من المبالغات وكانت مبالغاته من النوع المقبول من ذلك قوله في وصف نحول جسده:[٢]

ما كنت أحسبني أراع لحادث ... حتى منيت به فأوهن آدي

أبلتني الحسرات حتى لم يكد ... جسمي يلوح لأعين العواد

ومن مبالغاته قوله واصفا ارتفاع القنة التي بها منفاه ، وذهابها في السماء [٣]:

تكاد تلمس منها الشمس دانية ... وتحبس البدر عن سير وإقلاع

أظل فيها غريب الدار مبتئسا ... نابي المضاجع من هم وأوجاع

وقد حرص البارودي على أن يحقق في مطالع قصائده موسيقى

---

١ - الموازنة ج١ ص ٢٦٠

٢ - ديوان البارودي ج١ ص ١٩٠ ،١٩١

٣ - ديوان البارودي ج٢ ص٢٦١

داخلية ونغم شجي بما حققه في - معظمها - من تصريع في أول أبياتهـا ولا نبالغ إذا قلنا إن جل

قصائده جاءت مصرعة [١] من مثل قوله [٢]:

قليل بآداب المودة من يفي فمن لي بخل أصطفيه وأكتفي ؟

وقوله [٣]:

ردوا عليّ الصبا من عصري الخالي وهل يعود سواد اللمّة البالي ؟

وقوله [٤]:

محا البين ما أبقت عيون المها مني فشبت ولم أقض اللبانة من سني

وانظر إن شـئت ج٣ ص١٩٨ ، ج٣ ص ٦١ ، ج٤ ص ٢٥ ، ج٤ ص ٦٨ ، ج٢ ص ٣٥٤ ، ج١ ص ٦١ ،٦٢ ، ٦٣ ، ج٢ ص ٧٧، ديوان البارودي العودة ص ١٦٩

الأسلوب الشعري :

اتسم الأسلوب الشعري عند البارودي بعامة وفـي منفـاه بخاصـة بسمات عدة لعل أهمها :

أولا- جزالة الألفاظ والتراكيب

فألفاظه بعيدة عن الركاكة والليونة التي عرف بها العديد من شـعراء عصره وقبل عصره. ولعل دربة الشـاعر للأسـاليب القديمـة جاهليهـا

---

١ - التصريع : هو ما كان عروض البيت الأول فيه تابعة لضربه تـنقص بنقصـه وتزيـد بزيادته ومن المواضع التي يحسن فيها التصريع مطلع القصيدة انظر العمدة لابن رشيق القيرواني

٢ - ديوان البارودي ج٢ ص ٢٦٤

٣ - ديوان البارودي ج٣ ص٩٣

٤ - السابق ج٤ ص٣

وإسلاميها وكثرة ممارسته لها وترويض نفسه عليها وتمثله لها كانت وراء هذه الجزالة الشعرية، وخذ مثلا قوله مؤكدا حقيقة الموت وأن سهمه رائش لا محالة [١]:

فاربأ يفاعا أو اتخذ سربا ... إن كان يغني اليفاع والسرب
لا الباز ينجو من الحمام ولا ... يخلص منه الحمام والخرب
مسلط في الورى فلا عجم ... يبقي على فتكه ولا عرب
فكم قصور خلت وكم أمم ... بادت فغصت بجمعها الترب

ثانيا – اتسم أسلوبه كذلك بالصدق فيلاحظ من يقرأ شعره عامة وشعر المنفى خاصة أن الشاعر كان صادقا مع نفسه صادقا مع عواطفه وأحاسيسه نقل إلينا بيئة منفاه ووقعها على نفسه وكذلك وقع المنفى عليه معنويا وجسديا بكل شفافية ودون أدنى مواربة أو رياء .

وقد صدق البارودي حين قال:

فانظر لقولي تجد نفسي مصورة ... في صفحتيه فقولي خط تمثال
ولا تغرنك الدنيا مشاكلة ... بين الأنام فليس النبع كالضال

ولعل من مظاهر صدقه ما نجده في شعره من واقعية في الوصف والمتبدية – كما قلنا– في نقل حقيقة واقعه ومعاناته وشعوره النفسي دون مواربة أو خفاء.

والبحث يفيض بتصوير هذه المعاني بكل وضوح في كل مباحثه .

ويقرر د. أحمد مختار البرزة [٢] " أن الصدق هو الذي منح شعر

---

١ – السابق ج١ ص ٨٦ ، ٨٧

٢ – الأسر والسجن في شعر العرب . مؤسسة علوم القرآن بيروت الأولى س١٩٨٥ ص ٦٤٦

الحبوس قدرته الدائمة على إطلاق شحنات من الانفعـــالات ونقلهـــا إلـــى النفوس تنبعث فيها بألوانها وظلالها وأبعادها الشعورية والفكرية ، سواء في ذلك كثير الشعر وقليله أو طويله وقصيره .فالنفي كان ولا يزال على رأس التجارب الشعورية المحضة - يفضي الإنسان من خلاله ويبوح بكـــل مـــا تضمه جوانحه من أتراح وأوجاع" .

ولا يفوتنا أن ننوه إلى ما سبقت دراسته من قبل من حواره مع سيفه، والآخر مع الحمامة، ومناجاته لبعض أصدقائه في منفاه، فكل هذا من دلائل صدق الشاعر مع نفسه ومشاعره .

ثالثا- تخيره للألفاظ والتراكيب التي توائم وتناسب الحالـــة النفســـيه والموضوع الذي يتحدث فيه سواء كان حانا ومشتاقا أو كان راثيا ومتفجعا أو كان واصفا ومصورا أو

كان شاكيا ومعاتبا. فمن يقرأ قصيدته :

ترحل من وادي الأراكة بالوجد فبات سقيما لا يعيد ولا يبدي

وما تحمله من ألفاظ وتعبيرات تحمل معاني نفسية وقـــيم شـــعورية وبوح وإفضاء يقف على قدرة الشاعر الفنية وحسه الصادق الذي اســـتطاع أن يضع المعنى الفني في وعاء يناسبه ويحمل أحاسيسه بكل وضوح .

رابعا - استعانته بالكثير من الحكم والأمثال التي تناسب المعنى المتناول، بل وتؤكده وتكشف عن طبيعة الموقف الذي يعيشه، وهي حكم وليـــدة تجـــارب عديدة فجرتها تجربة المنفى، وكانت ثقافته العربية الواسعة واطلاعه على كثيـــر من شعر شعراء العربية معينا ورافدا له اسمعه يقول :[1]

---

١ - ديوان البارودي ج٣ ص ١١٦

إن ابن آدم – لولا عقله – شبح مركب من عظام ذات أوصال

ويقول:[١] .

إذا المرء لم ينهض لما فيه مجده	قضى وهو كلّ في خدور العواتق

خامسا– غلبة التقليدية على أساليبه الشعرية وتراكيبه وألفاظه، فكثيرا ما نجد في أساليبه وتراكيبه وألفاظه الكثير مما ورد في الشعر العربي القديم، وهذا يدل على رافده الثقافي وينبوع شعره وهو التراث القديم، كما يدل على صدقه مع فنه يقول د٠ محمد حسين هيكل عن التقليد عند البارودي " نحن نحاول اليوم أن نلتمس الجديد في شعر البارودي ، ونقصد بالجديد ما أبدع من أغراض لم تكن مطروقة في عهد الأولين ممن بعث لغتهم وشعرهم٠ وما كانت ذاتيته قوية واضحة فيه ، وما يتصل بالحاضر مما جعله الشعر الأوربيّ أغراضه ، فيأخذ بألباب ما في ديوانه من الشعر السياسي ، ومن وصف الطبيعة المصرية والآثار المصرية والحياة العصرية ، أما ما خلا ذلك فلم يعد البارودي فيه مقاصد المتقدمين من شعراء العرب ،ولم يعد أوزانهم وقوافيهم وأغراضهم ٠٠٠وهو في الحق لم يتجه بالشعر العربي غير وجهة الأقدمين الذين عارضهم وراض القول على مثالهم٠ وإن كان من الحق كذلك أنه لم يفن فيهم ولم يقصر همه على النقل عنهم ،بل بدت شخصيته بارزة في شعره ،وبدا شعره مرآة بيئته وزمانه، فلو أنه عاصر الأقدمين وعاش بينهم لكان له ما للأخطل وللفرزدق ولأبي فراس ولبشار ذاتية يمتاز بها عن غيره ، ويقف بها في الصف الأول من هؤلاء الأقران المبرزين"[٢]

١- السابق ج٢ ص ٣٥٨

٢ – ديوان البارودي ج١ المقدمة ص ٢٩ ، ٣٠

ومن مظاهر التقليد في أسلوبه الشعري قوله :

أصبحت بعدك في دياجر غربة ... ما للصباح بليلها من مطلع
لا يهتدي فيها لرحلي طارق ... إلا بأنة قلبي المتوجع
أرعى الكواكب في السماء كأن لي ... عند النجوم رهينة لم تدفع

وقوله واصفا منفاه:

أبيت في قنة قنواء قد بلغت ... هام السماك ، وفاتته بأبواع
يستقبل المزن ليتيها بوابله ... وتصدم الريح جنبيها بزعزاع
يظل ثمراخها يبسا،وأسفلها ... مكللا بالندى يرعى به الراعي

واستمع إليه وهو يفتخر بشجاعته وقوة بأسه:

وإنا رجال تعلم الحرب أننا ... بنوها،ويدري المجد ماذا نحاول
إذا ما ابتنى الناس الحصون ،فما لنا ... سوى البيض والسمر اللدن معاقل
فما للهوى يقوى عليّ بحكمه ... أما يدري أني الشمري الحلاحل؟
وإني لثبت الجأش مستحصد القوى ... إذا أخذت أيدي الكماة الأفاكل
إذا ما اعتلقت الرمح والرمح صاحبي ... على الشر قال القرن إني هازل
لطاعنت حتى لم أجد من مطاعن ... ونازلت حتى لم أجد من ينازل
وشاغبت هذا الدهر مني بعزمة ... أرتني سبيل الرشد والغي حائل

فتغنيه بشجاعته وبطولته وقت النزال يعيد إلى أذهاننا صورة الفارس العربي القديم.

ومما يبدو على أسلوبه الشعري من تقليد، ما هو إلا نتيجة اتباعه سنن سابقيه من الشعراء، حتى في أوصافه وتشبيهاته، انظر إليه وهو يصف أرقه ووجده [1]

---

١ - ديوان البارودي ج١ ص ٢٠٨

فبت كأني بين أنياب حية من الرقط أو في برثني أسد ورد

فهو متأثر بالنابغة الذبياني في اعتذاره للنعمان بن المنذر في قوله[١]:

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع

ومن قصائده التي تحوي العديد من الأساليب والتراكيب القديمة قصيدته في الفخر التي قالها على روي قصيدة المتنبي:

أود من الأيام ما لا توده وأشكو إليها بيننا وهي جنده

والتي مطلعها :

رضيت من الدنيا بما لا أوده وأي امرئ يقوى على الدهر زنده؟

وفيها يقول[٢]:

أبت لي حمل الضيم نفس أبيَة وقلب إذا سيم الأذى شب وقده

نمتني إلى العلياء فرع تأثلت أرومته في المجد وافتر سعده

وحسب الفتى مجدا إذا طالب العلا بما كان أوصاه أبوه وجده

إذا ولد المولود منا فدره دم الصيد والجرد العناجيج مهده

فإن عاش فالبيد الديامیم داره وإن مات فالطير الأضاميم لحده

أصد عن المرمى القريب ترفعا وأطلب أمرا يعجز الطير بعده

ومن التقليد أيضا الدعاء للديار بالسقيا على عادة سابقيه كدعائه لقبر الحبيب والدعاء للوطن ولدار محبوبته يقول داعيا لوطنه بالسقيا [٣]:

فيا منزلا رقرقت ماء شبيبتي بأفنائه بين الأراكة والرند

سرت سحرا فاستقبلتك يد الصبا بأنفاسها وانشق فجرك بالحمد

وزر عليك الأفق طوق غمامة خضيبة كف البرق حنانه الرعد

---

١ - ديوان النابغة الذبياني تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم- دار المعارف -ط الثالثة ص٣٣

٢ - ديوان البارودي ج١ ص ١٤٥ ، ١٤٦

٣ - ديوان البارودي ج١ ص٢١٠

ويطلب من النسيم تبليغ السلام إلى القبر وقاطنه ويشكو إليه بقوله[١]:

سر يا نسيم فبلغ القبر الذي　　بحمى الإمام تحيتي ووداد

أخبره أني بعده في معشر　　يستجلبون صلاحهم بفساد

طبعوا على حسد،فأنت تراهم　　مرضى القلوب أصحة الأجساد

تنوع الأساليب لديه بين الخبر والإنشاء حسب ما يقتضيه المقام ويتطلبه الموقف.

وقد استخدم أسلوب الاستفهام بصورة واسعة. ولا يقصد من استفهاماته - في الغالب - طلب الفهم. ولكن يقصد منها الإنكار أحيانا والتوبيخ أحيانا والتعجب أحيانا.

فقد استخدم الشاعر الاستفهام ليعبر خلاله عن إنكاره وتعجبه لما أصابه من النفي والإبعاد رغم شدة إخلاصه لوطنه ودفاعه عن حماه. يقول:

فهل دفاعي عن ديني وعن وطني　　ذنب أدان به ظلما وأغترب؟

فلا يظن بي الحساد مندمة　　فإنني صابر في الله محتسب

ويقول أيضا:

فماذا عسى الأعداء أن يتقولوا　　عليَ وعرضي ناصع الجيب وافر؟

وأحيانا يستخدمه منكرا على أعدائه نيلهم من شرفه ومكانته فيقول:

لا يطمس الجهل ما أثقبت من شرف　　وكيف يحجب نور الحونة الدخن؟

وقد يأتي الاستفهام عنده ومرادا منه التماس العذر لنفسه وحمل غيره على الاقتناع بقوله.كقوله:

وأي امرئ يقوى على رد لوعة　　إذا التهبت أربت على وهج الجمر؟

وقوله:

---

١ - ديوان البارودي دار العودة ٢٥٦

وكيف يطيب العيش والمرء قائم على حذر من هول ما يتوقع؟

والأمثلة على تنوع الاستفهام لديه عديدة منها ج٢ ص ١٨٨ والقصيدة تحتوي على أكثر من خمس استفهامات.

والنهي كقوله من قصيدة كشف الغمة:

فلا ينم ظالما عما جنت يده على العباد فعين الله لا تنم

وكذلك ج٢ ص ٨١، ٨٢

وانظر إن شئت ج٤ ص ١٤٣ ، ج٤ ص ١٤ ، ج٢ ص ١٥، ١٦ ، ج٣ ص ٦٨ ج٢ ص ١٢

ويقول أيضا:

فلا يظن بي الحساد مندمة فإنني صابر في الله محتسب

والأمر كقوله:

يا قلب صبرا جميلاً إنه قدر يجري على المرء من أسر وإطلاق

وكذلك ج٢ ص ٣٣٧ ج٢ ص ٢٤٥ : ٢٥٢، ج٤ ص ١٧٩

والدعاء كقوله:

يا رب بالمصطفى هب لي وإن عظمت جرائمي رحمة تغني عن الحجج

ولا تكلني إلى نفسي فإن يدي مغلولة وصباحي غير منبلج

والنداء:

ويكثر عنده نداء وخطاب ما لا يعقل وهذا دليل على شدة الوله والحيرة والتخبط.

من مثل قوله:

أيد المنون قدحت أيَ زناد وأطرت أية شعلة بفؤادي

وقوله:

يا دهر فيم فجعتني بحليلة كانت خلاصة عدتي وعتادي

ومن نداءاته قوله:

فيا"مصر"مد الله ظلك وارتوى ثراك بسلسال من النيل دافق

وقوله:

شوق ونأي وتبريح ومعتبة يا للحمية من غدري وإهمالي

وقوله:

فيا سراة الحمى ما بال نصرتكم ضاقت علي وأنتم سادة نجب؟

وقوله:

يا غاضبين علينا هل إلى عدة بالوصل يوم أناغي فيه إقبالي

وقوله:

يا جيرة الحي ما لي لا أنال بكم معونة وبكم في الناس يعتون ؟

الحوار:

استخدم البارودي أسلوب الحوار ليضفي على وصفه روح الحيوية والحياة " إذ ينزع فيه من أسلوب المتحدث المباشر ، أي من الصوت الواحد إلى التعبير عن صورتين متقابلتين ويساعد الحوار على رسم الشخصيات ونمو المواقف وتجسيد التجربة كما يخفف من رتابة السرد نظرا لتنوع الأصوات تبعا لتنوع الشخوص المشاركة فيه "[1]

ويشعر من يقرأ وصفه أنه يشاهده بعينه ويسمعه بأذنه. وتنوع أسلوب

---

١ - الحوار في القصيدة العربية إلى نهاية العصر الأموي د. سيد أحمد عمارة ط الأولى ١٤١٤هـ. ١٩٩٣م المقدمة صـ ب

الحوار عنده فكان منه حوارا مع النفس، وحوارا مع أناس وأشخاص وحـــوارا مع من لا يعقل ، إلى آخره. يقول في معرض تصويره لمجلس أنس:

وقال لي الخلان صف حسن يومنا ... فأنت بنجدي الكلام خليق
فرويت شيئا ثم جئت بمنطق ... ذكي يفوق المسك وهو فتيق

ويقول مصورا مشهدا واقعيا:

وباكية شجت قلبي بلحن ... تهيج له المسامع والقلوب
سألت فقيل قد فقدت حبيبا ... وهل يبقى على الدنيا حبيب
بكيت لها ولم أفهم صداها ... وقد يبكي من الطرب الغريب

ومن أطرف حواراته، حواره مع السيف الذي كـــان عدتـــه وعتـــاده وطالما نصره، فيراه وهو في محنته متخاذلا عن نصرته. يقول:

ولا صاحب غير الحسام منوطة ... حمائله مني على عاتق صلد
إذا حركته راحتي لثلمة ... تطلع نحوي يشرئب من الغمد
أشد مضاء من فؤادي على العدا ... وأبطأ نصري على الشوق من فند
أقول له والجفن يكسو نجاده ... دموعا كمرفض الجمان من العقد
لقد كنت لي عونا على الدهر مرة ... فمالي أراك اليوم منثلم الحد
فقال : إذا لم تستطع سورة الهوى ... وأنت جليد القوم ما أنا بالجلد
وهل أنا إلا شقة من حديدة ... ألح عليها القين بالطرق والحد
فما كنت لولا أنني واهن القوى ... أعلق في خيط وأحبس في جلد

ولا غرو فقد نشأت بينه وبين السيف صلة روحية أنشـــأها الخيـــال الإنساني وأعانه على إنشائها السيف نفسه بما فيه من قوة ترهب الأعـــداء وتقذف الرعب في قلوبهم.

وفي معرض تصوير شوقه وشدة وجده نراه يتغزل بمحبوبته " لمياء " ويصفها وصفا حسيا ويعقد حوارا جميلا بينه وبين نفسه فيقول:

فلست بناس ليلة سلفت لنا ... بواديه والدنيا تغر بما تسدي
إذ العيش ريان الأماليد والهوى ... جديد وإذ " لمياء " صافية الود
منعمة للبدر ما في قناعها ... وللغصن ما دارت به عقدة البند
سبتني بعينيها وقالت لتربها ... ألا ما لهذا الغر يتبعني قصدي؟
ولم تدر ذات الخال والحب فاضح ... بأن الذي أخفيه غير الذي أبدي
حنانيك إن الرأي حار دليله ... فضل وعاد الهزل فيك إلى الجد
فلا تسألي مني الزيادة في الهوى ... رويدا فهذا الوجد آخر ما عندي
وها أنا منقاد كما حكم الهوى ... لأمرك فأخشى حرمة الله والمجد
فلو قلت قم فاصعد إلى رأس شاهق ... وألق إذا أشرفت نفسك للوهد
لألقيتها طوعا لعلك بعدها ... تقولين حيا الله عهدك من عهد

وحوار البارودي كان حورا موفقا إذ نـراه يضـفي علـى المشـهد الحواري الطابع القصصي.

ويكثر عند البارودي أسلوب التجريد. واستخدمه الشـاعر كوسـيلة للإفضاء عما يجنه ضميره وتكنه نفسه من خواطر وأفكار. اسمعه يقول:

خليلي هذا الشوق لابد قاتلي ... فميلا إلى" المقياس " إن خفتما فقدي
ففي ذلك الوادي الذي أنبت الهوى ... شفائي من سقمي وبرئي من وجدي
ملاعب لهو طالما سرت بينها ... على أثر اللذات في عيشة رغد
إذا ذكرتها النفس سالت من الأسى ... مع الدمع حتى لا تنهنه بالرد
فيا منزلا رقرقت ماء شبيبتي ... بأفنائه بين الأراكة والرند
سرت سحرا فاستقبلتك يد الصبا ... بأنفاسها وانشق فجرك بالحمد

وانظر إن شئت إلى ص ١٧٠ ، ١٧١من ديوانه ط بيروت.

ومن مخاطباته خطابه قلبه حاثا إياه على الصبر قائلا [١]:

يا قلب صبرا جميلا إنه قدر ... يجري على المرء من أسر وإطلاق
لابد للضيق بعد اليأس من فرج ... وكل داجية يوما لإشراق

ويقول مخاطبا نفسه حاثا إياها على الصبر أيضا - في معرض رثائه لزوجته - :

فاستهد يا((محمود))ربك والتمس ... منه المعونة فهو نعم الهادي
واسأله مغفرةً لمن حل الثرى ... بالأمس فهو مجيب كل منادى
هي مهجة و دعت يوم زيالها ... نفسي،وعشت بحسرة وبعاد
تالله ما جفت دموعي بعد ما ... ذهب الردى بك يا ابنة الأمجاد
لا تحسبيني ملت عنك مع الهوى ... هيهات ماترك الوفاء بعادى

ويقول مخاطبا ومستسعفا مظاهر الطبيعة:

هل من فتى ينشد قلبي معي ... بين خدور العين بالأجرع
كان معي ثم دعاه الهوى ... فمر بالحي ولم يرجع

. . . . . .

فيا دموع القطر سيلي دما ... ويا بنات الأيك نوحي معي
وأنت يانسمة وادي الغضا ... مري برياك على مربعي
وأنت ياعصفورة المنحنى ... بالله غني طربا واسجعي
وأنت يا عين إذا لم تفي ... بذمة الدمع فلا تهجعي

ومال البارودي إلى القص والحكي أحيانا ليعطي نفسه فسحة في التعبير عن شعوره ومكامن نفسه. من ذلك قصه لما حدث بينه وبين بعض من أرادوا الثورة ، ونصحه لهم وإبائهم إلا الثورة ثم خورهم بعد ذلك

---

١ - ديوان البارودي ج٢ ص ٣٢٧

وضعفهم ، وقصه لطيف سميرة وإردافه بصفات عن ابنته وأخواتها وعيشتهن وتميزهن على نظرائهن ونداتهن.

وقصه لمجلس أنس ضمه وبعض أصحابه ، وقصه لموقف الوداع وقصه لحاله بأسره وغير ذلك.

كما مال البارودي كثيرا إلى الحكمة -كما مر - وحكم البارودي تدور حول تصرف الأحوال بالناس وتغير الدهر بهم ومعادن الناس وكيفية التعامل معهم إلى غير ذلك. وحكم البارودي حكم صادقة سمحة جادت بها نفسه غذتها كثرة تجاربه وخبراته الواسعة بالناس والحياة من حوله.

الأوزان والقوافي :

جاءت قصيدة المنفى لدى البارودي على نفس القوالب والأوزان العروضية التقليدية القديمة فلم يخرج فيها عن النظام الخليلي القديم.

ويتحدث شوقي ضيف عن الروعة الموسيقية عند البارودي قائلا [١]:" الروعة الموسيقية إذن عند البارودي تأتى من استيعابه الرائع لموسيقى شعرنا التقليدية استيعابا جعله يحكم صياغة شعره إحكاما بحيث لا تسمع فيها عوجا ولا انحرافا كما جعله يحكم أنغامه وألحانه قصرت أو طالت بحيث لا تسمع فيها نبوا ولا شذوذا إنما تسمع الرنين الفخم وما يزال يتضخم حتى كأنك بإزاء أناشيد حربية مدوية "

وغلب على شعره في منفاه البحور ذات الأوزان الطويلة كالطويل والكامل والبسيط والمتقارب ،ولعل غلبة الشعر الوجداني بعواطفه الحزينة كالحنين والشوق والوجد والشكوى والأنين هو الذي دفع به إلى الميل لهذه

---

١ - البارودي رائد الشعر الحديث دار المعارف ط الخامسة ص ٢٠٧

الأوزان الطويلة فهذه الأغراض تحتاج إلى التمهل والأناة وطول نفس - هذه الأمور من صفات هذه البحور الطويلة فبحرا الطويل والبسيط مثلا - كما ذكر د/عبد اللطيف المجذوب[١] أطولا بحور الشعر العربي وأعظمها أبهة وجلالة وإليهما يعهد أصحاب الرصانة ومنها يفتضح أهل الركاكة والهجنة ... والطويل أفضلها وأجلها وهو أرحب صدرا من البسيط وأطلق عنانا وألطف نغما .

وبحر البسيط كما قال عنه د.عبده بدوي [٢] بحر يساعد على الشجن ويجيد التعبير عن الحنين وقد وصفه حازم القرطاجي بالبساطة والطلاوة.

أما قوافي البارودي عامة وفي منفاه خاصة جاءت جلها متمكنة في مكانها غير قلقة أو مستكرهة شاكل لفظها معناها واقتضى أحدها الآخر كما كانت ناقلة لشعوره معبرة عن مكامن ذاته وفد وظفها توظيفا حسنا للتعبير عن معانيه وأفكاره وكل ما يجيش بصدره من آلام وأوجاع، وغلب على قوافيه الحروف المجهورة كاللام والراء والدال والميم والنون والعين ومرد ذلك يعود -- غالبا - إلى شدة الأنين والوجد والصرخة العالية وشعوره بالظلم البين والخطب الفادح وانقلاب الأمور والأحوال بالوطن والرعية ومن الطبيعي أن يعبر الشاعر عن كل ما يعن له من إحساسات تجاه ما حدث له في وطنه وما عاناه في منفاه وكان المناسب لذلك كله القافية المجهورة التي يعلو بها صوته وينفس خلالها عن وجده وأنينه .

ولعل لجوء الشاعر إلى القافية المجهورة " يرجع إلى رغبة شاعر

---

١ - المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها مطبعة الحلبي القاهرة الأولى ١٩٥٥م ج١ ص ٣٩٢

٢ - الأدب وروح العصر ط ذات السلاسل الكويت ص٢٢٢

المنفي في تبليغ رسالته من أعماق سجنه فيعمد إلى الحروف المجهورة دون وعي لينقل إحساسه

بالقهر والظلم وتصل شكواه بذلك إلى الناس خارج المنفى "[١]

ومن سمات قوافي البارودي في منفاه أيضا غلبة القوافي المطلقة على قوافيه فقد جاءت جل قوافيه مطلقة وذلك لأن القافية المطلقة أوضح في السمع وأشد أسرا للأذن لأن الروي فيها يعتمد على حركة بعده قد تستطيل في الإنشاد وتشبه حينئذ حرف مد [٢] وهذا يناسب ما يرمي البارودي إليه في منفاه وهو توصيل صوته وتبليغ رسالته إلى مسامع قومه وساسة وطنه وبيان موقفه من الحكم وتصوير ما لاقاه في منفاه من وجد وألم وشدة.أما القافية المقيدة فهي تنتهي بحرف ساكن وهو حرف إذا وقع في نهاية الكلمة وأريد الوقوف على كلمته فإنه قد يتعرض للغموض أو الإبهام فيقل وضوحه في السمع أو قد يسقط في النطق ولا يكاد السامع يقف على حقيقته ولا يحس بموسيقاه[٣]

---

١ -- شعر الأسر والسجن في الأندلس جمع د٠بسيم عبد العظيم الخانجي بالقاهرة الأولى ١٩٩٥م ص٢٠٨ بتصرف

٢ - موسيقى الشعر إبراهيم أنيس ص٢٨٠

٣ - السابق ص ٢٨٤

الخاتمة

تلك هي دراسة شعر المنفى لدى البارودي:

وقد أسفرت الدراسة عن عدة حقائق طالما رددها نقاد الأدب والعاملين في حقل الدراسات الأدبية لعل أهمها:

١- أن نوع الباعث يحدد الغرض الشعري: فكانت تجربة المنفى مفجرة لشعر كان ضئيلا قبل المنفى كشعر الشكوى والأنين ، والشوق والحنين ، والزهد ، ووصف الوجدانيات ، فجل هذه المعاني وغيرها وسم بها شعر المنفى.

٢ - سادت موجة سوداوية قاتمة في جل شعر المنفى ، فاختفت البهجة والنظرة المرحة والحياة اللاهية والحلم المنشود ، وأعقبتها الحسرة والألم والضنى والوجد والشوق ووصف كل هذه الأحاسيس .

٣- ظل للشاعر اعتزازه بنفسه حتى في منفاه :

فلم تره يتزلف أو يتأسف أو يعتذر ، وكل ما هنالك أبيات يشحذ بها همم سراة الحمى ورجالات الوطن دون تسمية ليهبوا لنصرته ورد حقه إليه فقد ظلم وبغي عليه.

٤- غلبة المعاني المكررة على شعره:

فتجده وقد صور وجده وشوقه إلى وطنه مثلا يكرر نفس المعنى بأكثر من صورة شعرية وفي أكثر من موضوع من ديوانه ، ولا نلوم الشاعر على هذا إذ أن الباعث الشعري واحد ، وقد طالت به مدة المنفى ، فحق له أن يحنَ من وقت لآخر ويئنَ في الغدو والآصال ، ويعبر عن كل ذلك بصور مختلفة.

٥- ثار شاعر المنفى في منفاه كما ثار قبل منفاه ، فلم يرض بعيشة زملائه في المنفى القائمة على الحقد والتلاوم والضغينة والعكوف على تناول التبغ وغير ذلك ، فتراه وقد ملَ المقام بينهم وتركهم إلى " كندي " ليقضي بها عشرة أعوام، كما تراه يثور من وقت لآخر فيقول:

فحتام نسري في دياجير محنة　　يضيق بها عن صحبة السيف غمده
إذا المرء لم يدفع يد الجور إن سطت　　عليه فلا يأسف إذا ضاع مجده

.....

عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعش　　بها بطلا يحمي الحقيقة شده
وإني امرؤ لا أستكن لصولة　　وإن شد ساقي دون مسعاي ده

ولم تضعف ملكته الشعرية في منفاه رغم أنه صار في محنته " أشلاء همة في ثياب " فقد علَم أهل كندي اللغة العربية ، وتعلم منهم اللغة الإنجليزية ونظم بها شعرا.

وفي منفاه اختار أجود ما قاله الأقدمون فكانت " مختاراته " التي تدل على حس رائق وذوق جميل.

والحمد لله أولا وآخرا

المصادر والمراجع

- الأدب العربي في الأندلس- د٠عبد العزيز غيثو -دار النهضة العربية - بيروت ط الثانية ١٩٧٦م

- الأدب وروح العصر د٠ عبده بدوي - ط ذات السلاسل الكويت

- الأسر والسجن في شعر العرب د٠ أحمد مختار البرزة . مؤسسة علوم القرآن بيروت الأولى ١٩٨٥م

- أسس النقد الأدبي عند العرب -د٠ أحمد أحمد بدوي- نهضة مصر للطبع والنشر بالفجالة ١٩٧٩م

- أصول النقد الأدبي - أحمد الشايب - مكتبة نهضة مصر - العاشرة ١٩٩٩م

- البارودي رائد الشعر الحديث دار المعارف ط الخامسة

- الحوار في القصيدة العربية إلى نهاية العصر الأموي د٠ سيد أحمد عمارة ط الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٣م

- ديوان البارودي. تحقيق علي الجارم ومحمد شفيق معروف ط دار الكتب

- ديوان البارودي. ط دار العودة بيروت ١٩٩٢م

- ديوان الخنساء- ط دار صادر بيروت

- ديوان النابغة الذبياني - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم- دار المعارف - ط الثالثة

- ديوان أبي فراس الحمداني- شرح د. خليل الدويلفي - دار الكتاب العربي - بيروت - الأولى ١٩٩١م

- ديوان زهير بن أبي سلمى -ط دار صادر - بيروت

- ديوان ابن الرومي- تحقيق د٠حسين نصار-الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٧٦م

- ديوان المعتمد بن عباد -تحقيق حامد عبد المجيد -دار الكتب المصرية ط الثانية ١٩٩٧م

- الرثاء - د٠شوقى ضيف سلسلة فنون الأدب العربى دار المعارف ط الثالثة

- شعر الأسر والسجن بين أبي فراس الحمداني والمعتمد بن عباد٠ مصطفى مصطفى عطا - دار الشروق

- شرح ديوان أبي الطيب المتنبي لأبي العلاء المعري - تحقيق عبد المجيد دياب - دار المعارف ط الثانية ١٩٩٢م

- شعر الأسر والسجن فى الأندلس - جمع د. نسيم عبد العظيم - مطبعة الخانجى بالقاهرة -الأولى ١٩٩٥م

- الصناعتين أبو هلال العسكري-.تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم - المكتبة العصرية صيدا- بيروت ١٩٨٦م

- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيروانى - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد دار الجيل بيروت الطبعة الرابعة ١٩٧٢م

- عناصر الإبداع في رائية أبي فراس د٠ محمد عارف محمود مطبعة الأمانة بالقاهرة الأولى ١٩٨٨ م

- في الأدب الحديث- د.عمر الدسوقي ط. دار الفكر العربي القاهرة

- فن الشعر - إحسان عباس - دار الشروق طبعة ١٩٩٢م

- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري- أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي تحقيق السيد أحمد صقر دار المعارف بمصر ١٩٦٥م

- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها- د٠ عبد اللطيف المجذوب مطبعة الحلبي القاهرة الأولى ١٩٥٥م

- موسيقى الشعر- إبراهيم أنيس- مكتبة الأنجلو المصرية - ط السابعة ١٩٩٧م

-- مجلة الزهراء- كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالقاهرة ١٩٨٧م ٠ العدد الخامس

- من المدائح النبوية- تقديم د.سعد ظلام ط الأولى ١٩٧٨م مطبوعات الشعب

- النقد الأدبي الحديث - دار الثقافة بيروت ١٩٧٣م .